حكايا المشرقي



أبو المنصور

أبو المنصور



حكايا المشرقيّ

الكتاب: حكايا المشرقيّ

المؤلف: أبو المنصور

ISBN: 978-2-9568172-3-9

البريد الإلكتروني:

ar.kalawoun@gmail.com

الطبعة الأولى

1442 هـ – 2020 م

القياس: 21.5 x 14.5

عدد الصفحات: 136

تصميم الغلاف:

Motion Eye Productions

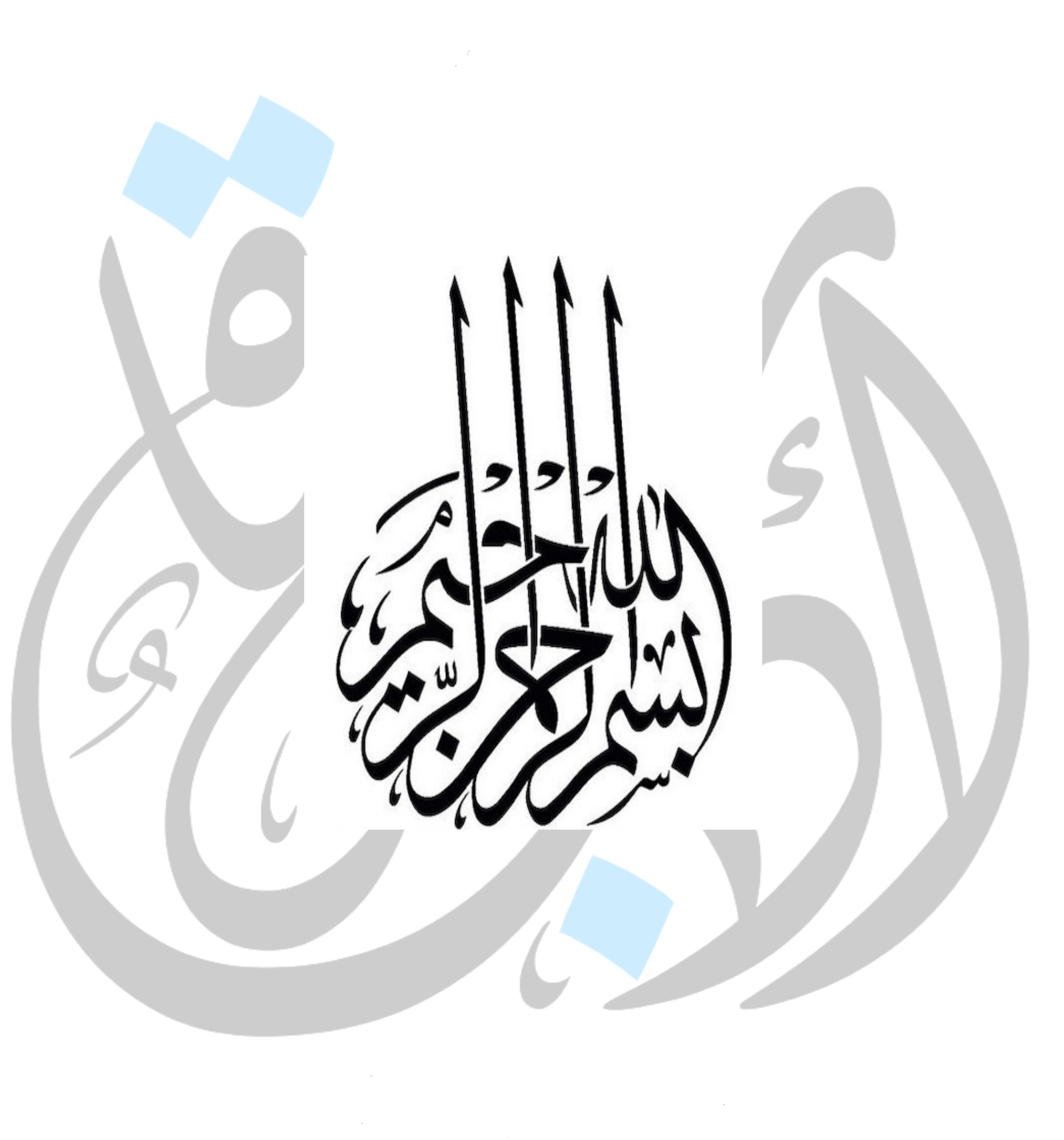
أحبّ احتراقي بنار اشتياقي

ولا أرتضي عيشة الخاملين

فناء الفراشة في النار يعلو

حياة الجبان طوال السنين

محمد إقبال


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى كلّ من آمن بالتغيير وسعى إليه سعيه

وكلّ من وقف بوجه الظلّام أعزل يرى بعينيه نعيه

إلى كلّ مؤمنٍ لم يقنطه إطباق المحن ونيران الحرب

ولم يطع المثبّطين ولم يتنكّب عن الدرب

إلى الّذين رفضوا الإخلاد إلى النوم

وآثروا العطاء والبذل والصوم

إلى أصحاب النفوس الراقية والأهداف السامية

أهدي هذا العمل شعلةً ماضيةً باقية.



المقدمة

الحمد لله دائم النعم، الحمد لله دافع النقم، الحمد لله مالك الملك والملكوت، pصاحب العزّة والجبروت، الحمد لله الّذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، خلق الإنسان من سلاسةٍ من طين، ثم جعله نطفةً في قرارٍ مكين، وأودعه الرحم الأمين، ثم أخرجه إلى عالم الأنوار والظلمات، ومنّ عليه بنِعمٍ أقلّها الحياة، ثمّ هو يحبو ويسعى، ويحفظ وينسى، ويرضى ويجحد، ويحزن ويسعد، ثمّ هو يعلو في الأرض أو يتقهقر، ويتواضع أو يتجبّر، ثمّ إلى الله الرجعى والمآب، وعليه والعرض والحساب. وأصلّي وأسلّم على المبعوث رحمةً للعالمين، محمدٍ خير ابن آدم أجمعين، صاحب الخلق الأكمل، والمثال الأجمل، والشريعة الغراء، والمحجّة البيضاء، من قدّمه الله على سائر الأنبياء، وعلا ذكره في الأرض والسماء.

أمّا بعد، فإنّي أضع بين يدي القارئ الكريم مجموعة مقالاتٍ قصصيةٍ قصيرة، صيغتْ بلُغةٍ أدبيّةٍ لا مستعصيةٍ ولا فقيرة، موجّهةً لمختلف الأعمار، لا حكراً على مدرسةٍ أو تيّار، يجمعها خيطٌ رفيع، ويفرّقها اختلاف المواضيع، فأتت على تشابهٍ بيّنٍ واختلاف، وتفرّقٍ وائتلاف. وقد كتبتْ

على تباينٍ في القرب والبعد، والهدف والقصد. أسماؤها من نسج الخيال وأحداثها تدور بين الممكن والمحال، ولكنّها في النهاية بنات هذه الحياة، زيّنتُ كلّ واحدةٍ منها في وريقات، اقتبستها مما يعيشه الإنسان، من الهموم والأحزان، أكان من معاشرة أقرانه في المجتمع، أو معاملة أهل الصولة والسطوة والطمع.

وأنتهز الفرصة لأطلب من قارئ هذه الصفحات، ألّا يتعجّل فيها تصديقاً أو تكذيبا، ولا حكماً أو تعقيبا، وإنّما يُعمل فيها عقله، ويُقحم في أحداثها نفسه، وليتخيّل أنّه كاتب الرواية، أو بطل الحكاية، ثمّ ليبحث في السبل عن أهداها وفي الحلول عن أجداها، فإن وافقت مجرى المخطوط فهو خير، وإن خالفته فليس بضير، وذاك على الحالتين أفضل من القراءة العمياء بُغية الاستمتاع أو الإلهاء.

وأختم هذه المقدّمة باقتباس، من علَمٍ من أعلام القلم والقرطاس، الرافعيّ صاحب وحي القلم الّذي يقول فيه[1]: «*ليست دنياك يا صاحبي ما تجده من غيرك، بل ما توجده بنفسك، فإن لم تزد شيئاً على الدنيا كنتَ أنت زائداً على الدنيا، وإنْ لم تدعها أحسن مما وجدتها فقد وجدتها وما وجدتك،*

(1) وحي القلم، ج. 2، مقالة: قلت لنفسي وقالت لي. ص. 68، طبعة دار الكتب العلمية.

وفي نفسك أول حدود دنياك وآخر حدودها. وقد تكون دنيا بعض الناس حانوتاً صغيراً، ودنيا الآخر كالقرية الململمة، ودنيا بعضهم كالمدينة الكبيرة، أما دنيا العظيم فقارة بأكملها، وإذا انفرد امتدّ في الدنيا فكان هو الدنيا ».

وعليه، فإنّي أدعو نفسي والقارئ الكريم، أن يكون كلٌّ منّا رافد خيرٍ لهذه الدنيا لا عالةً عليها، ولو بموقفٍ... أو كلمةٍ... أو قصّة.

أبو المنصور

السبت، 1442/02/22 هـ

الموافق لـ 2020/10/10 م





حُلم

حدّثني يقظان قال: تراودني منذ أسبوعٍ رؤيا غريبة... إذ أراني أسير في طريقٍ متلوٍّ في غابةٍ كبيرة، وعلى جانبيّ الطريق الزهور والنباتات، وفي جوّه الطيور والفراشات، وفي آخر الطريق نارٌ صغيرةٌ حولها الناس يرقصون، ويخيّل إليّ من بعيدٍ أنّي أعرفهم، وفجأة... أحسّ بيدٍ تمسكني من الخلف، فألتفت لأرى جدّ أبي رحمه الله يمدّ يده من بعيد... من بعيدٍ جداً. لست أدري كيف عرفته ولا كيف امتدّت يده كلّ هذه المسافة ولكنّي عرفته، واقفاً عند طرف الغابة الآخر ويهتف بي: "لا تعودوا... لا تعودوا...". وأستيقظ كلّ ليلةٍ من هذا الحلم كالمجنون وكلماته ترنّ في أذنيّ: "لا تعودوا... لا تعودوا...". لم أفهم من يعني جدّي وماذا يقصد، لكن تكرّر الرؤيا قذف في قلبي نوعاً من الرهبة والخوف.

كان هذا جزءً ممّا دار بيننا ونحن نتناول طعام الغداء على قارعة الطريق، فالطقس الربيعيّ هذه الأيّام يشرح الصدور ويأسر الأبصار ويسحر الألباب. والناس يتنزّهون في البساتين والحقول ما بين ثلّةٍ صغيرة وعائلةٍ كبيرة، يرفلون في نعمة الأمن والحرّيّة والجمال والسعادة الّتي حباهم المولى إيّاها.

سألت يقظان عن جدّ أبيه هذا، من هو وماذا يعرف عنه، فأجاب: لست أحفظ عنه الشيء الكثير، لكن ممّا أذكره من حديث أبي رحمه الله وحديث

أعمامي أنّه كان وأهلَ البلد يعيشون في همٍّ وخوفٍ وضيق، وأنّ الله ابتلاهم بحاكمٍ ظالمٍ شديد، يغصبهم أموالهم وأراضيهم، وثمارهم وغلّاتهم، ويستعمل أولادهم ويكرههم في زيجاتهم، ويتدخّل في تفاصيل حياتهم، كأنّه السيد الآمر الناهي وهُم عنده عبيد وآلات. حتّى اشتعلت فتنةٌ تلتها فتنة، وبلبلةٌ وضجّة، فكانت شدّةً ما بعدها شدّة، لم تدع أحداً من كلاليبها، وحبالها ولهيب نيرانها، إلى أن انتهت بخروج حاكم القلعة وزمرته وتولّي أهل البلد تدبير شؤونهم، وأنّ جدّي كانت له في انجلاء الغمّة يدٌ بيضاء، ولتنسّم الحرّيّة عزمةٌ وبلاء. وأنّه كان قبلها غادر المدينة حديثَ السنّ، وطاف البلاد وجاب، وتعلّم ممّا رآه ما يسرّ ذوي العقول والألباب، وكذا من رجلٍ حكيمٍ رشيد، صحبه بضع سنين كالولد والمريد، قبل أن يعود إلى موطنه، ويساهم في نهضته وبعثته. وإن سألتني عن رسمه فهذا شيءٌ لم يصل إلينا، أمّا إن أردت اسمه فهو "فهمان بن جهلان المشرقيّ"، ولا يعرف أبي ولا إخوانه إن كان هذا اسمه الّذي أطلقه عليه أبوه، أو كان لقباً به الناس ألصقوه، لما تعلّم في سفره وترحاله، وسيره وتجواله. ولكنّه كان ذا فهمٍ ودراية، وحكمةٍ وهداية، ولأجل ذا "علّاماً" ولده البكر سمّى، ليكون اسماً على مسمّى.

أنهينا طعامنا وشكرنا ربّنا، وسرنا في طريقنا نمتّع نواظرنا بجمال الطبيعة وصفائها وحُسنها وبهائها حتّى حلّ المساء، فاتجهنا إلى الساحة الكبيرة وسط المدينة حيث حفل الربيع السنوي؛ وهو حفلٌ دأب عليه الناس في مثل هذه

الأيّام من كلّ عام، وهو أشبه بعيدٍ صغيرٍ يجتمع فيه الكبير والصغير والغنيّ والفقير، يتبادلون الحلوى والثمرات ويتناوبون على الأهازيج والكلمات.

وبدأ الحفل، كعادته، حتّى انتصف، فعلا الناس أحد الأغنياء ومضى يتكلّم ويصدح، يُثني ويُشيد ويمدح، يُعظِّم حاكم القلعة الجديد، ويمجّده ويسبّح بحمده ويُعيد... فقلنا لعلّه خير. فتلاه غنيٌّ آخر، قارب صاحبه في الثروة والمال، ونافسه السطوة والجاه واستعراض الحال، لكنّ كلامه جاء ككلام الأوّل بل زاد عليه وأسهب، وأكثر من المديح واسترسل وأطنب. ثمّ غنيٌّ ثالث، هو في المال دونهما، أمّا في الكلام والرياء فقُل أستاذهما، فقد سبق الآخرين بدرجاتٍ ومراحل، ونافق نفاقاً ما له من عاقل. ثمّ تلاهم رابعٌ ثمّ خامس، والكلّ في الكذب ينافس. ثمّ علا المنصّة بعض الفتوّات، فارغي الرؤوس مفتولي العضلات، فكان كلامهم في المعنى ككلام الأولين، وفي المبنى كفحيح الأفاعي والثعابين.

هنا فهمت الخطّة واتضحت لي المكيدة وانجلت المؤامرة، فنظرتُ إلى يقظان وأمسكته من الخلف، كيد جدّه في منامه، وقلت له: تعال... لدينا واجبٌ نبيل وعملٌ جليل. يجب ألّا نعود... يجب ألّا نعود... خُلقنا أحراراً ويجب ألّا نعود كالعبيد!!!



حكاية الوالي مع الشمع

حدّثنا علّام بن فهمان بن جهلان المشرقيّ عن أبيه عن جدّه قال:

كان والينا المعظّم يسوس العباد والبلاد أوّل أمره كما يسوس الراعي القطيع، فكان كلّما ارتفع صوتٌ أسكته بأن ملأ فاه بالطّعام والعطايا والأموال والهدايا، أو الوظائف والمناصب، لكلّ أمّيٍّ وكاتب، وأمّا أكثر ما كان يجود به فالأماني الزائفة الذائبة، والوعود الحالمة الكاذبة. وقد كان كالراعي أيضاً يسمّن خرفانه ليذبحها بعد حين، وهي عنه غافلةٌ تظنّ أنّها ترفل في النعيم.

ومرّت في عهده على البلاد محنةٌ لم يُر مثلها من قبل، وكأنّ الأرض قد توقّفت عن الدوران، وأنّه قد استقرّ على حاله الزمان، فطال الليل شهوراً والنّاس خائفون، لا يدرون ما يُحدثون ويصنعون. وكان العجائز يذكرون شيئاً أدركوه في صغرهم يسمّونه شمعا، رآه البعض بأعينهم والآخرون سمعوا به سمعا، يزعمون أنّك إن أنت أشعلته أنار دون أن يحرق الدار، وأدفأ قليلاً الكبار وتسلّى برؤيته الصغار، وأنّه طويل البقاء عصيٌّ على التلف، وأنّه لمصابيح هذا الزمان الأصل والسلف.

ولأن الشُقَّةَ طالت بين أيّامنا هذه وآخر عهد أجدادنا بالشمع فلم نكن ندري كيف يُصنع، ولا إن كان فيما جاورنا من البلدان يُباع أو يوزَّع، فاجتهد المجتهدون وجدّ المجدّون، رجاء الكشف عن هذا السرّ المكنون، حتّى صنعوا أشياء مختلفةً متفرّقة، مزيّنةً ومنمّقة، أطلقوا عليها اسم الشمع مصحوباً بألقاب الممالك، بينما يؤكّد العجائز أنّها ليست كذلك.

المهمّ أنّ والينا المعظّم أعجبته الفكرة، وزيّن له انتهاز الفرصة وزراؤه المكرة، فراح يشتري الشمع ومن يصنعه، ويبحث حتّى عن قليله ويجمعه، فإنّها لفرصةٌ للاحتكار، ولاستغلال حاجات الناس ورفع الأسعار، وسنّ لذلك القوانين الجديدة وأصدر المراسيم، ينظّم بيع هذا المنتج للمسافر والمقيم، وصار كلّ شمعٍ غير شمع الوالي مخالفاً للقانون، وكلّ "شمعيٍّ" من غير زمرة مولانا شمعيّ سوءٍ مآله السجون، وهكذا...

ولكنّ العجيب في الأمر أنّ الوالي ما استعمل الشمع وما أوقده، ومن نجح في شراء بعضه من الناس فسرعان ما فقده، فلقد صار أغلى من الفضّة والذهب، وسرعان ما تبخّر تفاؤل الشعب به وذهب. فجناب والينا لم يطلب الشمع ليهتدي به ويستفيد، وإنّما ليغرق الناس في الظلام الشديد، فهو يحبّ الإثارة والتبذير والغموض والجهل، وأن يبقى الناس في همٍّ دونما حلّ، وعليهم إمّا الاحتراق بالنّيران الكبيرة، أو العيش في

الظلام والضياع والحيرة، فإذا ما ناقشه في الشمع مناقشٌ غضب واحتدّ، وقال لا يزايدنّ عليّ أحد، فأنا من محبّي الشمع ومقتنيه، وأنا منه وفيه، وأمّه وابن أبيه".

واستمرّت الحال على ذلك المنوال، ومن سيّءٍ إلى أسوء لا يخطر على بال، لا في الصحو ولا في الخيال، حتّى قدّر الله وحدث ما حدث وانجلت الغمّة، وأشرقت الشمس من جديدٍ على هذه الأمّة.

هنا انتهت حكاية علّام عن جدّه، لكنّ أحد الحاضرين المتحذلقين قام وقال: يا علّام إن كان الوالي فعل هذا بالشمع والمساكين، فما عساه يفعل بالمعتقد والدين؟؟ فقال له: اسكت يا فهيم، أولا تدري أنّه منه وفيه، وأمّه وابن أبيه!!


إيلاف

حدّثنا علّام بن فهمان بن جهلان المشرقيّ عن أبيه عن جده قال: كان جُلّ سكان بلدنا يعتاشون إمّا من التجارة وإمّا من الزراعة، وقد كان فيهم بالطبع الحرفي والراعي والطبيب والحلّاق، ولكنّهم كانوا قلّةً لا تُذكر بجانب هاتيك المهنتين. وعلى الرغم من وفرة الماء وخصوبة الأرض بالإضافة إلى وقوع البلد على خط قوافل التجار، إلّا أنّ ضرائب الوالي ومكوسه لم تكن تترك للناس كثير ربحٍ يثلج صدورهم ويطمئن أفئدتهم ويُسكّن مخاوفهم.

وكان عندنا رجلٌ مجنونٌ، مسكينٌ محزون، ذهب الزمان بعقله فلم يعد له رباط، وحلّ لسانه فلم تعد تُسكته السياط، حتّى أصبح الناس يتحاشونه خشية أن يلحقهم من كلماته غضب السلطان عبر وشاية الخوّان. وقد بلغني أنّه جُنّ لشدّة ما ذاق من العذاب، من نار الجلّادين ونهش الكلاب، وأنّه إنّما عُذّب لأنّه صدق، وبالحقّ نطق، ولم ينحن للتهديد والوعيد، وسلاسل الحديد، حتّى أصابه ما أصابه فأصبح الفضاء الواسع منزله، والخبز اليابس مأكله، وصار في الطرقات يسير، يهذي بالكثير وباليسير، في التافه والخطير. وكانت أحياناً تتفجّر من مستنقعات ترّهاته، عيون حكمته ونهفاته، فكان الناس يستلطفونه ويحبّونه، ومع ذلك يخشون قربه ويتحاشونه.

وذات صباحٍ استيقظ القوم على بلبلةٍ كبيرة، وفاجعةٍ مريرة، إذ انقطع سقي الماء

عن الأراضي، واستفسروا فإذا هي وفاة العمّ راضي، الّذي كان يحوّل الماء من بستانٍ إلى بستان، في الوقت اللازم والآن، دون زيادةٍ أو نقصان، ولا ظلمٍ ولا عدوان. كان يُنظّف الجداول، ويحفظ المخارج والمداخل، ويعرف كلّ فلّاحٍ ومُزارع، والأرض والمرابع. وكان بهذا العمل قائماً بمفرده منذ الصغر، ولم يتّخذ معاوناً أو خادماً عند الكبَر، فمنذا يسدّ مسدّه من الأهالي، ويعوّض هذا الفقيد الغالي؟!

غير أنّ الوالي تدخّل في خضمّ الأزمة، وقدّم الحلول اللازمة الحازمة، وعيّن على الماء فتىً من الحاشية، لا يفقه لا في الزرع ولا في الماشية. فكان يحضر يوماً ويغيب اثنين، ويعامل الناس بالوعود والمين، وكان طيشه أكثر من رشاده، وهناته أكثر من حسناته، فمرّة يُغرق أرض فلانٍ بالماء فيتلف المحصول، ومرّةً ينسى أرض جارِه فتيبس فيها الفروع والأصول، وحيناً يجده الناس قرب الساقية ينام كالخامل الكسول، ويطلبونه أحياناً فيختفي ويتعذّر إليه الوصول.

هذا وقد كان العمّ راضي رحمه الله يتقصّى أخبار القوافل العابرة والآتية، فينقل أخبارها للتجار ليتحيّنوا الفرصة المواتية، إذ كان يراها من التلّ البادي، فيسأل عنها الرائح والغادي، ويعرف ما فيها من البضائع ومن تهمّ من أهل الصنائع. أمّا الشابّ المحظوظ، فلا مُلاحِظ ولا مَلحوظ... يُكلّف

بيت المال الشيء الكثير، ولم نر منه إلا الضرر الكبير، وكلّما اشتكاه إلى السلطان أحد، كلّفه مولانا بالعمل معه سخرةً وأورثه السوء والنكد.

أمّا صاحبنا المجنون، فقد ركب في الحارات العرجون، والناس قولَه تسمع، وتسكت كمن في الصلاة يخشع، وهو يضحك ويبكي، ويردد ويحكي: يا راضي إنّا ظلمناك، بخسنا حقّك وما شكرناك، كنت تحمل الخير للناس، محسنهم ومعدوم الإحساس، ظننّا عملك حقيرا، وكان أجرك يسيرا، فإذا بك ثغرةً عظيمةً كنت تسُدّ، وأفضالك علينا تربو ولا تُعدّ، لكنّنا ألفنا النعم واعتدناها، وما شكرناها وما حفظناها، حتّى ضيّعها المضيّعون وإنّا يا راضي لنحن الآثمون. كم مثلك بيننا ولا نشعر، ولا نقدّر ولا نشكر، وكم لله من نِعمٍ جليلةٍ عظيمة، وأفضالٍ جمّةٍ قديمة، نعيشها دون تفكّر، ولا نظرٍ ولا تدبّر، ثمّ ترانا نجحد ونكفر.

ويلٌ للناس من شرّ الناس... ويلٌ للناس من شرّ الناس... ويلٌ من الفقر والجوع، ويلٌ من الجبن والخنوع، ويلٌ من كفر النعم وسوء النقم، ويلٌ من حَقْر المعروف، ومن عذابٍ غير مصروف... يا ويح قريش، لإيلاف قريش... يا ويح قريش، لإيلاف قريش...

قال علّام في ختام الكلام: هذه حال أقوامٍ كُثر، على مرّ الأزمنة والعُصُر، ولو أنّهم أعاروا السمع "مجنونهم"، لما كان طال في الشقاء مكوثهم.



الساحر

"إنّ أخوَف ما أخاف على أمّتي كُلّ منافقٍ عليم اللسان".

مسند أحمد

حدّثنا علّام بن فهمان بن جهلان المشرقيّ قال: كان فرعون بلدنا قبل عقود، حكم كما تعلمون بالنار والسياط والقيود، وكان ـ كما الفراعين على مرّ الزمان والطغاة في كلّ مكان ـ له شياطين وزبانيةٌ كُثر، يُروّعون الآمنين ويَهتكون السُّتُر، وكان له أيضاً سحرة، محتالون مكرة، يخدعون الناس ويغشّون الحواسّ، يخدّرون الراس ويُرَون بألف لباسٍ ولباس.

فقال أحد الحاضرين: أيُعقل هذا يا علّام؟! كيف يُستحضر السحرة من كتب الحكايات والأساطير، بل كيف يَستدعيهم الظالم الكبير، وهو الغنيّ ليس إليهم بفقير، بل كيف يُصدّق الناس السحرة وسِحرهم وما ذلك بيسير؟

فأجابه علّام: صدقت فيما قلت وإليه أشرت، وسأبيّن لك بعض ما استغربت واستنكرت. فما الساحر إلّا رجلٌ حصل لديه علمٌ غاب عن الآخرين، ومهارةٌ في استعماله تَبهَر الناظرين، كأنّما الناس فرائسه ولهم ينصب الكمين، فيستدرجهم فرحين إلى داخل العرين، وربّما لو درَوا حقيقة سحره لما قدّروه، ولما خافوه وما هابوه، بل لعلّهم نبذوه واحتقروه.

ولكنّه فنّ خداع الأبصار، وطمس الحقيقة والإبهار، وما تسلّط الساحر لا على المادّة ولا على الجوهر، ولكن على أحاسيس الناس والمنظَر.

والسحرة أنواع: فمنهم من يُقدّم عروضه في المسارح والساحات، ليكسب شيئاً من الشهرة وينال بعض الخيرات. ومنهم من يلفّ نفسه بالغموض، والحيّات والضفادع والبعوض، يزعم أنّه على كلّ شيء قدير، وأنّه المجرّب الخبير، وأنّه يُخاطِب مَلِك الجانّ الأزرق، والأحمر والأورق، وأنّه يحلّ عقدة العقم والإنجاب، ويفكّ الحجاب وإن كان في بلاد البنجاب. ويأخذ من المخدوعين المال الكثير، وله في كلّ مأزقٍ روغانٌ وتدبير، ولكلّ سؤالٍ إجابةٌ وتبرير، وما هو إلّا محتالٌ خسيسٌ حقير، وليس مع ذلك يعدم جاهلاً يُصدّقه، أو غريق همٍّ يتعلّق به ممّا يؤرّقه.

ولكنّ هؤلاء ضررهم محدود، وشرّهم مقصورٌ ونفوذهم مجدود، أمّا الساحر الأكبر والمخادع الأخطر، فهو ذو جبّةٍ ومنبَر، يخطُب من قصر السلطان، عذبُ البيان عليمُ اللسان، فهو والحاكم قرينان، لا يفترقان ولا ينفصلان. كلاهما بصاحبه متعلّق، هذا به متمسّكٌ وذاك له متملّقٌ به متسلّق. وكيف لا يَحرص على بقائه الفرعون، وهو صاحب الألف ألف مظهرٍ ولون؟ يُقدّم سيّده للناس والدهماء، على أنّه في الأرض ظلّ السماء، ويسبّح بحمده صباح مساء.

يمشي إلى المساكين والفقراء، فيحدّثهم عن الصبر على الشدّة والبلاء، وأنّ الدنيا وسخٌ كلّها، والأفضل للمرء تركها وجهلها. ثمّ يقصد المغصوبين والمسروقين، فيحدّثهم عن طاعة الحاكمين، وعدالة الموازين، وأنّ حقّهم المسلوب كان من الحرام، فما عليهم إلّا حمد وشكر الإمام، أن خلّصهم من هذه الأوزار في سلام.

ويدور من بعد على المساجين، وعلى المغضوب عليهم من المعارضين، والمظلومين والمعذَّبين، فيعظهم في الصبر والسكوت، والانشغال بالتسبيح ولو في بطن حوت، ويشرح لهم كيف أنّ الابتلاء من الله جاء ونَزَل، وأنّ الاعتراض عليه كُفرانٌ وزَلل، وأنّ الجهر بما يُغضب السلطان، يستوجب غضب القدير المنّان، إذ لا يجوز الاعتراض على القدر، وإن طغى الحاكم الجبّار وفَجَر.

ثمّ يلتفت إلى الشباب، ويرتدي لهم أحدث الثياب، ويحكي لهم عن النشاط والهمّة، والأمور المهمّة، وعن التعارف والزواج، وركوب الأمواج، وعن تحقيق الذات، واختبار اللذّات، وأنّ الفشل في الحياة محتوم، وأنّ طلب تفاديه مفهومٌ ومعلوم، ولكنّه قدرٌ سابِقٌ من الأقدار، فليسلّم له الشابّ كأنّه حمار!

ويمشي من بعد إلى الأغنياء، وهُمْ قليلون جُلّهم بخلاء، يُكلّمهم عن شكر النعمة، وتفادي الغضب والنقمة، وعن أنّ دوام الخير بدوام الحاكم مضون، فببقائه قويّاً الأمن مرهون، وأنّ التخلي عنه ضربٌ من الجنون، وأنّهم إن يُشاركوه أموالهم،

يُرضِهم ويُهنئ بالَهُم، وأنّ الالتفات إلى الضعفاء والمساكين، يزيد الفقر ويؤخّر التمكين، فهو وإن وُصف بالعمل المحمود، غير أنّه باعثٌ على التواكل والجمود!

أمّا العامّة والبسطاء، فيحدّثهم عن الطاعة العمياء، في الشدّة والرخاء، وأنّ أعادي البلاد، لحاكمهم لبالمرصاد، يتربّصون به الدوائر، ويكيدون له جهراً وبالسرائر، وأنّ الالتفاف حوله مندوب، بل واجبٌ ومطلوب. وأمّا المنغّصات، فيُصبَر عليها إلى غدٍ آت... ولكن هيهات هيهات.

قال أحد الحاضرين: وأين كان بقيّة الشيوخ، من هذه التجاوزات والشروخ؟ فأجابه علّام: كان أكثرهم من الضعفاء الفقراء، فآثر جلّهم السلامة والبقاء، وعيشة الضنك والشقاء، على محاربة الداء بالدواء، والصدع بالحقّ في مجابهة الأشقياء. وما ذلك بمستغربٍ وإن كان ممّا يخيف، فإنّ كلمة الحقّ شديدة التكاليف، وقد تورث الوبال الفظيع المخيف، ولا بدّ لها من البطل الشريف، الشجاع المِقدام، الّذي لا يهاب الظلام والظلّام، وبخاصّةٍ إن كان مسموع الكلام، مُقدّماً لدى الأعيان والعوام.

ومنهم من تشبّه بالساحر الأكبر، عساه ببعض الفتات يفوز ويظفر. ومنهم من تكلّم فرُمي بالجنون، أو تحرّك فأُلقيَ به في غياهب السجون. ومنهم من نُفي من البلاد وطُرد، ومنهم من عُلّق على الأعمدة فشُنق أو جُلد.

وأمّا الدجّال الكبير، فقد أعلن على هؤلاء النفير، واتّهمهم بأنّهم تجّار دين، وأنّهم في الحقيقة رؤوس المنافقين، عملاءُ للأعداء وأذرعٌ للشياطين، إلّا من انضوى منهم تحت لوائه، ولم يَسلم مع ذلك واحدهم من لسانه ولأوائه. فوالله لَسحر هذا الساحر أعظم مِمّن عداه، إذ عمّى عيون الناس وكمّم الأفواه، وحرّف النقول وأسكر العقول، وأفهم الجميع أنّه المخلص الأمين، بنصحهم لوجه الله ليس بالضنين.

ولكنّ لله تدبيراً فوق كلّ تدبير، ولا يَردّ قضاءه وزيرٌ ولا أمير. فقد بطل سحر الساحر الكبير، وأمسى في عيون الناس جدّ حقير، فسقط حتّى قبل سقوط مولاه وسلطانه، وداست هيبتَه الأقدام كذاك وكلّ أعوانه.

ومرّت السنون وزال حُكم الطاغية، وتبعثرت من بعده الشرذمة الباقية، فمنهم من تاب واعتذر، ومنهم من اختفى وانزوى واندثر، ومنهم من غيّر الصنعة وصحب التجّار، فضرب في الأرض أو ركب البحار. ومنهم من عاد يتملّق، ويُنافق ليتألّق، يتزلّف للعهد الجديد، كأنّه لم يفهم الدرس والوعيد، فليس بالمستغرَب ولا بالبعيد، أن يحلّ به السخط أو العذاب الأليم الشديد.



حيّان وسوأة الوالي

حدّثنا علّام بن فهمان بن جهلان المشرقيّ عن أبيه عن جدّه قال:

كان أبي حيّان مزارعاً بسيطاً يعمل في استصلاح الأراضي؛ يقلع صخورها ويحرق أشواكها، يقلّب تربتها ويشذّب أشجارها، ويغرس فيها ما شاء الله له أن يغرس، وكان قنوعاً ليس بالغنيّ ولا بالمفلس. وكان هو كبير إخوته وصورتهم الأنصع، لنصحهم وعونهم دائماً ما يجدّ ويُهرع، وبالرغم من أنّهم كانوا كثيراً ما يتنازعون، ويتخاصمون ويتشاجرون، إلا أنّـه كان يحفظ ودّهم ويُديم وصلهم، على خيرٍ في طبعه أصيل، وكرمٍ فيه وجودٍ وخُلقٍ نبيل.

وكان في المدينة والٍ ظلومُ الصولة ذائع الصيت، سليطٌ متعجرفٌ مقيت، وما أعلمه أنّ الناس على بعد المدّة نسوا أو تناسوا اسمه، ولكنّهم قطّ لم ينسوا فعاله وحُكمه. وكان أن خرج يوماً في رحلة صيدٍ إلى الأراضي الريفيّة، وهناك ابتعد عن حرسه بعض الشيء ليقضي حاجته الشخصيّة، مستمتعاً بهدوء الطبيعة وجمالها، مطمئنّاً إلى أفيائها ونباتها. وعندها حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد سمع الوالي خشخشةً فارتاع وظنّ أنّـه الثعبان، ولكن... ما لبث أن ظهر له سبعٌ كأنّـه الشيطان، ودنا منه مكشّراً عن أنيابه مهمهما، سائلاً لعابُه متجهّما، فتملّك الوالي الرعب وجأشُه خار، ولاذ بالهرب والفرار، مقتحماً الأشواك مصطدماً بالأشجار. وقد كان حينما فرّ بل طار، عارياً فلا إزار

ولا ستار، إذ ليس في ذهن "جناب السبع البهيم"، انتظار "جناب الوالي العظيم"، ليستر عورته ويواري سوأته.

وأطلق الوالي لساقيه العنان، وتبعه سيّد الحيوان، وبين تعثّر الوالي في الأشواك والأغصان، ومكر السبع اللاهث الطمعان، وصل الاثنان إلى حقلٍ يعمل فيه والدي حيّان. واستنجد صاحب السعادة، لكنّ أبي لم ينتظر استنجاده، بل سبق نداءه فأغاثه، وهوى على السبع بفأسه فأصابه، وتركه يوّلي يجرّ أذيال الخيبة والخسران. هنا أحسّ الوالي بالأمان، والسكينة والاطمئنان، وأعرب للشهم حيّان، عن جزيل الشكر والامتنان، وستر ما كان من جسده قد بان، وعاد إلى حرسه وموكبه عزيزاً غير مهان.

ولكنّه وكعادة كلّ مغرور، عاد ورأسه يدور، كأنّما فيه تغلي القدور، وأخذ يقلّب الأفكار ويمحّص الأمور... أيعقل أن يمنّ على الوالي فلّاحٌ بسيط، وأن يرى عورته وضعفه وعلماً به يحيط؟! إنّ ذا لمسلّطٌ عليه كلّ مغرضٍ وسليط. فدعا حين وصل القصر سدنته وكهنته، ووزراءه وسحرته، وقال: إنّي أتاني في المنام، هاتفٌ بيّن الكلام، ناوَلني الرمح والحسام، وحذّرني من فلانٍ وفلان، ومن فلّاحٍ اسمه حيّان، يدّعي أنّه نجْدٌ همام، وبطلٌ مقدام، ولكنّه في الحقيقة محتالٌ خوّان، وعميلٌ لعدوّنا الجبان، فأشيروا عليّ يا خلّان، فأنتم أصحاب الرأي والشان.

فأسرع الجميع يلهجون بالثناء، على صاحب الكشف المؤيَّد من السماء، وأطلقوا ألسنتهم بالمدح والإطراء، والنفاق والرياء، وأشاروا بفصل الرأس عن الجسد، وتشويهه قبل أن يُعاقَب ويحدّ. ثمّ بثّوا ثعابينهم بين الناس في دهاء، حتّى قال بقولهم العوامّ الأغبياء؛ أطفالهم، شيوخهم، الرجال والنساء. فالوالي رُفع عن عينيه الغطاء، وعلم ما يدور في السرّ والخفاء، وعلى يديه سيظهر الفلاح والنجاء، حتّى ولو سالت لأجل هواه كالأنهار الدماء. ولم يعد في القوم عقلاء، حتّى أعمامي أقرب الأقرباء، كانوا مثل غيرهم من الجهلاء، وهاجموا والدي وآذوه أيّما إيذاء.

وقبل أن يُساق فجراً في الوثاق، مُضيّقاً عليه الخناق، مدفوعاً إلى قاطع الأعناق، والعين في دموعها والقلب في احتراق، صبّرنا ووعظنا وقال: يا أولادي، أشفقوا على أعدائكم وتمنّوا لهم الخير... ولكنّ أعداءه لم يشفقوا عليه ولم يرحموه ولم يتمنّوا له الخير... ومضى، واشتعلت من بعده فتنٌ كبرى، حتّى كان ما كان، وزالت بعد الغمّة الهموم والأحزان، فالحمد لله العزيز الحكيم الكريم المنّان.



الذنب ذنب الرعيّة

حدّثنا علّام بن فهمان بن جهلان المشرقيّ عن أبيه عن جدّه قال:
كنتُ فتىً حديث السنّ أخرج إلى البيادر والحقول، أو البساتين والسهول، أرعى لهذا غنمه، وأجني لذاك ثمره. وبالرغم من أنّ الأجر لم يكن وافيا، ولا للقلب شافيا، ولا لتكاليف الحياة كافيا، إلّا أنّ العمل بحدّ ذاته كان ذا متعةٍ لا توصف، وسرعان ما يولف. وكان أهمّ ما فيه، مطلب العاقل النبيه، أنّه كان خارج الأسوار، ومتنفّس المرء من الحصار، حيث العصافير هناك طليقةٌ حرّة، تنوح وتشدو المرّة تلو المرّة، فلا يمنعها من الكلام عسس الحكّام، بحجّة حفظ النظام والصالح العام.

وحدث ذات مرّة، أن ابتعدت غُنيمةٌ صغيرة، فقُدت القطيع إثرها لأدركها قبل أن يجدها الذئب فيأكلها. وبعد كذا تلّةٍ ومنعطف، وقد راودني في شأنها ريب التلفّ، ألفيتها بين يدَي رجلٍ غريبٍ عن الديار، يبدو أنّه كثير الأسفار، معه زادٌ وحمار، وعصاً في لونها احمرار، لم أشاهد مثلها من قبل ولا من بعد، كأنّها بالدم خضّبت عن عمد. وإذا به يحنو على الغُنيمة يُهدّئ من روعها، ويضمّد جرحاً في ساقها، وهو يغنّي ويقول:

لا تجزعي يـــا صغيرة	إنّ الحيـــــاة مريرة
ومـا جراحـك هـذي	إلّا خـدوشٌ يســيرة
غداً تصـيرين أقـــوى	تســعين مثـل الأميرة
وتُرزقين خـرافـــــاً	تمـلأ تـلك الحـظـيرة

فبادرته بالسؤال، عن أمره فقال: إنّما أنا كما ترى عابر سبيل، أجوب البلاد بزادٍ قليل، رفقة حماري "الأصيل".

فقلتُ ألا تعرّج على بلدنا فترتاح؟ فإمّا تقيم فيه برحابة صدرٍ وانشراح، وإلّا فتنام وترحل مع الصباح.

فقال لا والّذي رفع السماء بلا عمَد، لا أبيتُ ساعةً في هذا البلد. أوليس يحكمكم رجلٌ خسيس، دأبه البغي والتدليس، تابعتموه في طغيانه، وصدّقتموه في بهتانه، ورضيتم الظلم شرعةً ومذهبا، وجرعتم القهر زلالاً طيّبا؟! ألا والله ما ظلمكم إلّا لأنّكم ظالمون، وما علاكم إلّا لأنّكم مستكينون.

فقلت مهلاً يا شيخ انظر ما تقول!

قال أليس يظلم فيكم الرجل زوجته، والأخ أخاه وأخته، والسيّد خادمه

ودابّته؟! أليس يستعلي فيكم الحقير ذو المال، ويُحتقر الحكيم ضيّق الحال؟! أليس يغشّ البائع زبونه، ويضيّع الجار جاره، ويخون المستأمن أمانته؟! وأنتم من بعد مستسلمون قانعون، وبالثناء على فرعونكم لاهجون، فاشتدّت عليكم وطأته، وأحكمت قبضته. ألا إنّكم قبله لأنتم الظالمون، وما تجنون إلّا ما كنتم تزرعون.

ثمّ نهض فشدّ عليه إزاره، ويمّم نحو الشرق حماره، ومضى مردّداً هذه الأبيات:

الذنب ذنب الرعيّة	في أصـــل هذي البليّة
حادت عن الحقّ دهراً	واستسـلمت للدنيّة
جارت فجــار عليهـا	أخسّ من في البريّـة
ولو بدنيـا استقامت	لاسترجعتهـا هنيّـة

وغاب عن ناظري، وكلماته تتردّد في خاطري، واحترتُ أأنقل كلامه للعوام، أم أحبسه بين ضلوعي وأدفنه مع الأحلام؟ ولي في كِلتا الحالتين اهتمام... ومقاربة الحِمام!



عيشة الخرفان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا رأيت أمّتي تهاب الظالم أن تقول له أنت ظالم فقد تُودّع منهم.

مسند أحمد

حدّثنا علّام بن فهمان بن جهلان المشرقيّ قال: كنتُ حكيتُ لكم من قبل عن جدّ أبي لأبيه وكيف قتله الملِك الجبان، بعد أن أنقذه من براثن الحيوان، ليتخلّص منه ومن جميله، ومن كثير همّه وقليله، ومن العار الّذي لحقه، فلم يرع للمسكين فضله ولا حقّه. وعرفتم كيف حاك له المكائد، وقلّب عليه الأقارب والأباعد، حتّى انتهى به المطاف، إلى حبل الشنّاقة من غير ما إنصاف.

وركب الناس بعد هذه الحادثة خوفٌ مطبِق، كأنّه جلّادٌ يكبّل اليدين والفمَ يُغلِق، فلا أحد يعترض، ولا ثائر ينتفض، ولا يجرؤ على الكلام، إلّا من عزم على خوض الحِمام. وقد أقسم جدّي أغلظ الأيمان، أنّ الناس بما فيهم زمرة السلطان، مدركون أنّ أباه مظلوم، وأنّ الوالي ظالمٌ غشوم، ولكن اختلفوا؛ فمنهم من يَشتُم الضحيّة ليظفر بالعطايا، ومنهم من يبرّر سيرة الحاكم في الرعايا، ومنهم من يلوم المجنيّ عليه لا الجاني، لأنّه تعرّض لما لا يعنيه فكان مِن حتفه الداني.

أمّا سواد الناس فاختاروا السكوت، والتزام الدور والبيوت، فليس لهم

في هذه القضيّة ناقةٌ ولا جمل، ولا يعني واحدهم ما لغيره قد حصل، فلا ترى إلّا طلبَ السلامة، وعلى خفض الرأس الثبات والاستقامة، ولو أورثهم ذلك العار والشنار، وعرّضهم لغضب الله وعذاب النار، وقالوا فتنةٌ نعتزلها، ولا نخوض فيها ولا ندخلها، وكأنّهم عنها في معزل، أو أنّها غداً على رؤوسهم لا تنزل.

وهذا ما كان بعد شهور، إذ اغترّ بما تحصّل له المغرور، فزاد بطشُه وطغيانه، واشتدّت صولتُه وبهتانه، وازداد الناس خوفاً وفزعا، ومن كلّ سوءٍ ولو صغُر رهبةً وجزعا، وفاوضوه ولكن على المزيد من الهوان، كأنْ لا قيمة عندهم للإنسان، وعرضوا عليه أن يُقدِّموا له في كلّ يومٍ ضحيّةً جديدة، مقابل أن يسمح لهم برؤية شيءٍ من الدراهم الفريدة، فهزأ بهم وغدَر، وتجبّر عليهم وفَجر، فذاقوا منه مذلّةً شديدةً وقهرا، وكانت عاقبة أمرهم خسرا.

ولكن هيهات أن يهدأ للظالم بال، أو يدوم له الاطمئنان على حال، فقد بدأت شرارات الثورة تشتعل، والنار من صدور القوم تهبّ وتنتقل. وانقسم الناس بين متحرّقٍ للتغيير، إن بالكلمة أو بالنفير، وبين مؤثرٍ السلامة والنجاة، ومهادنة الطغاة والجناة، وما أكثر ما استحضر هؤلاء أمثالاً تفي بالغرض، من إيثار السلامة على الخطر والصحّة على المرض. والآخرون يردّون بأبيات الحماسة، وتفضيل الموت على البيع في سوق النخاسة، ولم يعدم الطرفان استعمال الدين استعمالاً مغرِضا، والاستشهاد بالتاريخ استشهاداً

مقوّضا، فتشتّت شملهم، وتبعثرت قوّتهم، وضاع فيما بينهم بأسهم، وما أسهل تشتيت المختلفين وتفريق المتباعدين، عند أولياء الأمور وأزلام السلاطين.

وانتقل الغليان من الأهازيج والأبواق، إلى الدروب والأسواق، فهنا يهجم الناس على الشُّرَط، وهناك يُشتم الحاكم ومن قدْره يُحَطّ، ثمّ يدهم العسس البيوت، فيعود ليخيّم على الأحياء السكوت. ثمّ تبدأ الدورة من جديد، ومع كلّ مرّةٍ يشتدّ البطش ويزيد، حتّى أُلقي القبض يوماً على أحد رؤوس المحرِّكين، بعد أن وقع في فخٍّ محكَمٍ متين، إذ انفضّ عنه الّذين وعدوه النصر والتمكين، والثبات في مقارعة الظالمين، فسرعان ما تفرّقوا ساعة الجدّ، وخلّوا وراءهم شعارات الثبات والسؤدد والمجد، واقتيد الرجل مثقلاً بالأصفاد، ونصبوا له شنّاقةً وجمعوا ليوم إعدامه العباد، وكالوا له الشتائم وأغرقوه بالتهم، وأظهروا له السخائم وكلّ ما يُذمّ.

وحضر موقفَ الإعدام أحدُ دجّالي القصر، وأحدُ أخبث أهل الأرض في ذلك العصر، فأرغى كثيراً وأزبد، وهدّد الناس وتوعّد، ثمّ التفت إلى الرجل المحكوم، وقال أعطيك فرصةً أيّها الموهوم... أبدِ أسفك على الملأ بشجاعة، وأعلن لواليك السمع والطاعة، وأنّك كنت مُغرّراً مُضَلّلا، وأنّك نادمٌ على ما بدر منك آخراً وأوّلا.

فوقف الرجل كالطود الأشمّ، رأسه في السماء والقيد في اليدين والقدم، وقال اسمعوني يا أهل البلد، وأبلغوا كلامي من غاب أو ابتعد، فاليوم يوم جدٍّ وحقيقةٍ وجَلَد، وربّما لن ألقاكم بعد إلّا عند الواحد الأحد... أردتُ لكم الخير والحرّيّة، وبذلتُ أغلى ما أملك رخيصاً ووهبتُهُ لكم هديّة، لكنّكم آثرتم الخنوع والعبوديّة، والذلّ والعيشة الدنيّة. وإنّي لست عليكم حاقداً ولا مؤاخذا، وإنّما مشفقٌ ناصحٌ فليكن نصحي إلى قلوبكم نافذا... إنّكم إنْ على هذه الحال بقيتم، وبهذا الهوان رضيتم، فإنّما تُنهون أحلامكم وتُضيّعون أمانيكم. وإنّي لأعلم أنّي لست بأكرم على الله من الحسين، ولا عليٍّ ولا ذي النورين، فإن أُقتَل فلست أوّل مظلوم، وإن أُخذَل فلست بذا أوحد مكلوم، ولكنّي أفوز بالحرّيّة بعد المشنقة، وأنتم بالخيبة ودوام المشقّة، فاختاروا أيّها شئتم، فإنّكم إلى ما اختارته أخلاقكم جئتم. كلوا واشربوا كما العبدان، وارعوا في السهول كما الخرفان، فإنّما حياتكم خدمة الأسياد، ورعيكم لموائد الأوغاد.

ثمّ التفتَ إلى السيّاف المقنَّع، وكان عرفَه من وشمٍ في زنده لا يُخطَأ ولا يخدع، وقال: وأنت يا أبا جريء، ألست تعرف يقيناً أنّي بريء، وأنّي لم أخن عهد جوارك، ولا قصّرت يوماً في برّك وصون أهل دارك، أفهل بلغ بك الخوف مبلغه، أم أغدق عليك السلطان فضله وأسبغه، حتّى تقيم عليّ حدّاً باطلا، وتنصر ظالماً في حكمه لا عادلا! ولكنّك واحدٌ من هؤلاء، تفضّل لقمة الذلّ

والشقاء، على العدل والحرّيّة والإباء... فهنيئاً لكم عيشة الخرفان، أمّا أنا فطامعٌ في رضا الرحمن، ونعيمٍ مقيمٍ ورضوان، وجنّةٍ ذات ثمرٍ وريحان، وشجرٍ وأفنان.

هنا نفد صبر الدجّال اللئيم، فأمر بحمل هذا النبيل الكريم، ليُنزلوا به أشدّ العِقاب، فكان... ومضى سامقا، وبقيَ أيّاماً معلَّقا، مثل العُقاب يطير محلِّقا، مثل الراية الخفّاقة، والنجمة البرّاقة، فوق عود المشنقة، شاهداً ما أوثقه! وكان آخر لحظاته ينادي، نداءً حفظه الرائح والغادي:

راموا النجاة مع الهوان فقصدُهُم — من ذي الحياة معيشــةُ الخرفانِ

فليهنهم هذا الحضيضُ وموتهُــم — مِزَعــاً تقيم موائــد الطغيــانِ

شتّـــــان بينهــــمُ وبين مُدافعٍ — بالحــقّ عن حــقٍّ يُداس يُعاني

يحيــا عزيزاً ثمّ يَقــضي واقفــاً — مستشهداً يمــضي إلى الــرحمنِ

وانفضّ الناس وهدأت البلاد، هدوء الجمر من تحت الرماد، وما هي إلّا قشّةٌ تقع مجدّداً حتّى تشبّ النار أقوى من ذي قبل، فتُباغتَ الظالم بما لم يكن عنده في الحسبان... وكان ما كان.



الخيانة

حدّثنا علّام بن فهمان بن جهلان المشرقيّ قال: حدثت زمن الفتنة الكبرى أمورٌ عجيبة، مخيفةٌ ومريبة، وهي تتكرّر في كلّ زمانٍ ومكان، ولكنّ أثرها أشدّ وأعمق في الوجدان، أيّام الشدائد والمِحن والافتتان. وإنّ من أكثرها إيلاماً وأعمقها أثراً أن يؤتى المرء من مأمنه، ويغدر به في مكمنه، ممّن يدافع عنهم ويناخ، ويُضحّي لأجلهم ويكافح. ألا ما أبشع الخيانة والغدر، وأشبههما بالرذيلة والعهر، فما قيمة الروابط بين الناس، إن انعدم الشعور وفُقد الإحساس، وإن وُئد الوفاء والإخلاص، ولم يُعِن الأخ أخاه على النجاة والخلاص.

ومن ذلك أنّ جدّي رحمه الله كان صغيراً حين قُتل والده، وشهد بعد ذلك أوّل الثورات الّتي نشبت تُمجّده، ثمّ خمدت حيناً من الزمن، ثمّ شبّت مُجدّداً كما شبّ جدّي في السنّ والبدن. وكانت هذه المرّة أقوى من الأُولى، وبلوغ مرامها أحرى وأَولى، فكان لحراكها أناسٌ متآلفون، متّحدون متعاونون، يُحسنون إدارة الأزمات، وتوجيه الضربات واللكمات، وامتصاص الغضبات والنقمات، وقد تعاطف معهم خلقٌ كثير، وجُنّ جنون الظالم منها وعقله كاد أن يطير.

واستمرّ النضال شهوراً عديدة، وامتدّت رقعته لأحياءٍ جديدة، وتزعزعت أركان البطش والجبروت، وتضعضع جند الحاكم الممقوت، وتبادلوا مع الثوّار الهجمات، وتعدّدت الصولات والجولات، فلمّا على هذا طال الأمر، ولم تنطفئ النار ولا برد الجمر، فُرِض الحصار على الأحياء، حتّى يموت أهلها جوعاً ويُسلّم من فيها من الأحياء. وأبدى الناسُ بدايةَ الأمر الثبات والإصرار، وسطّروا روائع في العزّة والفخار. غير أنّ الأمر لم يطل حتّى بدأت تتعالى بعض الأصوات، داعيةً إلى التقهقر والحِوَل عن الثبات، وأنّ الناس لم يلحقهم من الشعارات، إلّا القتل والخوف ونقص الثمرات.

ومن كان هؤلاء بالنسبة للثوّار؟ كانوا ابن عمٍّ ضاق ذرعاً بالحصار، أو جاراً كسدت بضاعته لدى التجّار، أو بطّالاً همّه مغادرة البلاد والفرار، أو رعديداً يخاف الحرب والدمار. وكانوا من قبل لا يجرؤون على الكلام، لزخم الثورة وقُرب تحقيق المرام، أما وقد اشتدّ الحال، وضاقت الصدور بهذا المآل، وتحرّك سرّاً أعوان الحاكم، يُشجّعون الناس على قبول الهزائم، فأخرج المتخاذلون ما في أفئدتهم، وعبّروا عمّا يُجنّون بألسنتهم، وهؤلاء أثرهم سيّئٌ محدود، والخوف عليهم _ لا منهم _ حاصلٌ موجود.

أمّا ما يحزّ بالقلب ويُقطّع الأوصال، خيانة رفاق الدرب وشركاء النضال،

كلّا... لا... هل... يمكن... أجل!

فقد بدأ الأمر باختفاء بعض الحرّاس ثُمّ ضُلّل التحقيق، وحريقٍ شبّ في مخازن القمح والدقيق، ثمّ أُتلفت محاصيل فلانٍ بن فلان، وخُرّبت بساتين العنب والرمّان، والجاني في كلّ هذه الحالات مجهول، لا أثراً يُخلِّف والبحث عنه يطول، ثمّ وقعت سَريّةٌ من الثائرين، في كمينٍ للظالمين، بعد أن كانت خرجت في مهمّةٍ سِرّيّة، إثر خبرٍ مدسوسٍ عن فرصةٍ ذهبيّة، فإذا كلّ ذلك تدبيرٌ حقير، وبسوء الحال نذير.

ومع توالي هذه الأحداث الغريبة، انتشرت في قلوب المرابطين الشكوك والريبة، واستمرّ الأمر مع هذه الخروقات، مدّةً طالت وازداد معها الخوف والتساؤلات، فقد أيقن القوم أنّهم مختَرقون، وإلّا فكيف وأنّى يؤذَون ويؤتَون، وبدأ الأخ يشكّ في أخيه، والوالد في بنيه، فازداد طينهم بلّة، وأمراضهم علّة، حتّى استيقظ الناس ذات ليلةٍ ليلاء، على أصوات عسس الوالي تضجّ في الظلماء، تملأ الشوارع والحارات، يطاردون فلول المقاومين ويشنّون عليهم الغارات. وما إن انقشع الظلام وأشرق الصباح، حتّى أحكم الظلّام قبضتهم وسلّم الناس السلاح.

وتكشّفت بعدُ بعض تفاصيل الخديعة، وبقي البعض الآخر حبيس الأسوار المنيعة، فقد كان بعض "القادة" عملاء، يكيدون لإخوانهم في السرّ والخفاء، زرَعَهم الطاغية بداية الحراك، ومكّن لهم بالمال والشِّراك. بعضهم وقع في فخّ الابتزاز، فاستسلم للظالم وانحاز، وبعضهم تمّ شراء ذمّته، فباع أهلَه وقضيّةَ أمّته. ولم يكن هؤلاء من المحرومين، ولا من السفهاء أو المجانين، بل كانوا ذوي مكانةٍ وشرف، وفائض مالٍ يُغري بالترف؛ فهذا أخٌ لشهيد، وذلك كان منفيّاً إلى الغرب البعيد، وذاك عند الشيخ الجليل مُريد، والآخر ابنٌ لمقاومٍ عتيد. وكبيرهم كان محلّ تقدير، وينال من اهتمام الناس الشيء الكثير، فقد نشأ فيهم يتيماً فاحتضنوه، وكان مسكيناً فأعانوه، وأفضالهم عليه لا تُعدّ، وثقتهم به ما لها حدّ، فخلعهم كخلع الثوب البالي، ورماهم تحت قدميه دون أن يُبالي. وكذا أشباهه ضعفوا أمام الرغبات، واستسلموا للشهوات، فطعنوا إخوانَهم في الظهر والصميم، ومكّنوا بالغدر الغاشم اللئيم، فهؤلاء أخبث وأفتك من الطاعون، وأخطر من تسليم القياد لأحمقَ مجنون، فإنّهم أودوا بالأصفياء الأنقياء، وحفروا لهم القبور في دهاء، وخدعوا الجميع بالتبسّم والخُطب، والوعود والأماني والذهب، فما أقبح غدرهم وأشنع، وأسوء صنيعهم وأقذع!

ولكنّها سنّة الله في صراع الفسدة، أن تنكشف وجوهٌ كانت بالتخفّي مجتهدة، وأن تزهق الأرواح والدماء، قبل تحقيق المراد ورفع البلاء، فإنّ الحرّيّة غايةٌ عالية، وتكاليفها باهظةٌ غالية، وإنّها لفتنٌ تتعلّم منها الشعوب، وتستبين بها السبل والدروب، فعاد إلى المتسلّط على الرقاب، هناء البال وأسدل النقاب، على هذه الثورة الخاسرة، وظنّ أنّها الداحرة...

ولكنّه أخطأ من جديد، فسرعان ما شبّ الوليد، وتعلّم الناس أكثر فأكثر، وأعدّوا له العدّة ودبّروا خيراً ممّا دبّر، حتّى كان ما كان، بعدَ مُدّةٍ من الزمان.

الهروب الأخير

حدّثنا علّام بن فهمان بن جهلان المشرقيّ قال: كان والدي رحمه الله في ريعان شبابه غادر البلد هرباً من التشتّت والحيرة، وبحثاً عن شاطئ الطمأنينة ونور البصيرة، أيّام الفتنة الكبرى، وليس من سمع بها ممّن أدركها بأدرى، وكان ذلك قبل زوال الغمّة والكربات، وانكسار الطاغية بسنوات. وكان دافِعُه إلى الخروج في طلب ضالّته معاناةً شديدةً عاشها، ومحنةً قاسيةً ذاق وبالها، حتّى ضاق به الزمان والمكان، واضطرّه ذلك إلى ما كان.

ولم يكن رحمه الله أشدّ الناس ابتلاءً في المال، ولا أضيقَهم في الرزق والحال، ولا أكثرهم مصاباً في دمه وعياله، رغم ما نال آباءه من سياط الظالم ونباله، ولم يُكرَه على الخروج إذ لم يكن ذا شأنٍ كبير، ولا إلى جُبٍّ مخفيٍّ على الولوج فلم يكن أمره عند الشرَط بالخطير، ولكنّ مأساته كانت بعيدةً عن هذا كلّه، ولم يلتفت إليها كثيرٌ من الناس ببعضه أو جُلّه.

يقول أبي: كان الظالم قد قمع حتّى ذلك الحين ثورةً بل اثنتين، وخمد الناس بعدها مدّةً وإن كانوا يرَون اشتعال النار رأي العين، ثمّ ما لبثوا أن عادوا للحراك، وأوّل ما كان منه نشوب العراك، ليس بالأيدي ولا الأقدام، ولا الإقدام بالسيف أو الإحجام، وإنّما بتبادل الأفكار والآراء، ومنابذة الأقوال والأهواء، والتراشق بالشتائم والتهم، ما بين مجروحٍ وآخر مُلتهَم.

فمن مُقدّسٍ للوالي ومن يوالي، واضعاً إيّاه وزبانيته في أعلى الأعالي، ينفي عنه كلّ تهمةٍ وريب، ويَرمي منتقده بالعِمالة والخيانة والرجم بالغيب، إلى ناقدٍ له النقد اللاذع، وكائلٍ له التُّهم باللسان اللاسع، ومُغرقٍ إيّاه بالشنيع من الأوصاف، وناسبٍ إليه كلّ فظيعٍ من الطغيان والإجحاف. واختلف الفريقان في كلّ شيء، حتّى الطعام والشراب والضحّ والفيء، حتّى ليحسب المرء أنّ اختلافهم واجبٌ وفرض، وأن لا مجال للتلاقي مهما اتسعت بهم الأرض. فإن قيل أبيض قال الآخرون أسود، وإن قيل شيخٌ قال الآخرون بل أمرد، وحلال الأوّلين حرام الآخرين، فيتفرّقون حتّى فيما يجمعهم من الشريعة والدين.

وتحزّب الناس في فرقتهم، واشتدّ النزع بينهم في دعواهم وحجّتهم، فلم يعد عندهم من مجالٍ لمخالفٍ في مسألة، إلّا أن يكون تبعاً للخصوم جملةً مفصّلة، فإن لم تكن معهم في كلّ شيءٍ طوعا، فأنت مع الآخرين جزماً وقطعا. ومن استثنوه قالوا منافقٌ محتال، يتقرّب منّا وله للآخرين امتثال، أو ترفّقوا به وقالوا مخبولٌ معتوه، وبالغباء أو الجنون وصفوه، وكأنّه لا يحقّ لامرئٍ اتخاذ القرار، أو يجوز له في المسائل الاختيار، أو يكون له في كلّ حادثةٍ رأيٌ مُحدّد، وأن لا يرى في نفسه الجِهبذ الأوحد! ومتى كانت الدنيا حصراً بين الأبيض والأسود، إلّا في نظر من لا يُبصر الألوان ووجودها يجحد.

وكنتُ أجدني أمام كلّ هذا حائراً مُكَتَّفا، إذ لا ألقى سمعاً مصغياً ولا عقلاً منصفا، ومن كان مثلي في ريعان الشباب، فهو كالباحث عن ذاته وسط الضباب، يتلمّس السبل والجدران، وليس له في دربه اطمئنان، يريد تحقيق ذاته ومُناه، وبناء فكره ورؤاه، وأن يجد أذناً صاغية، وكفّاً حانية، وصدراً رحباً ذا اتساع، له على النقاش إقبالٌ وعن الأذيّة امتناع. ولكنّ هذا كان مراماً عزيزا، وحلماً لذيذاً وجيزا، ليس له في واقع الحال مكان، ولا زمنَ الفتنة إمكان. وكم كنتُ ــ ولم أزل ــ أكره الأفكار المعلّبة، والمذاهب الفروضة المُغلَّبة، الّتي تقدَّم بالملعقة للأتباع، ويحرم فيها النقاش والابتداع، وإنّما هي طاعةٌ وامتثال، وإن لهواءٍ أو خشبٍ أو تمثال.

وحاولتُ مرّاتٍ ومرّات، طرق أبواب العقول والفِكَرات، فكنتُ أواجَه بالتخوين والزجر والإهانة، وكأنّي من المجرمين أو زمرة الحاكم والبطانة. وكلّما ناقشتُ تبييناً لموقفي وشرحا، ازدادت الردود تسفيهاً لشخصي وجرحا، سيّان في ذلك الشيوخ أم الأحداث، أو من تشابهت منّي ومنه الخطوب والأحداث.

ثُمّ غيّرتُ أسلوب الطرح والنقاش، باستدراج الآخر إلى التفكير لا التناطح كالكباش، فلم أجد نفعاً ولا جدوى، إذ التفكير عندهم خطيرٌ قد يجلب الداء والعدوى، فيهرب منه الناس إلى التسليم، من غير ما نظرٍ ولا تقييم،

وتفويض أمر العقل للقائد الملهَم الزعيم، فهو أدرى من الأتباع وأخبر، ومعارضتُه ولو باليسير أضرّ وأخطر.

ثمّ قرّرتُ ترك الناس وأهواءهم، ومذاهبَهم وآراءهم، فلا غنمتُ ولا سلمت، ولا هانئَ البال بِتّ ونمت. فقد صرتُ محطّ السؤال والاستفهام، لا للاقتداء أو الاستعلام، أو الاهتداء أو حتّى الاستجمام، وإنّما لسبر الأغوار وكشف الأفكار، واستبياناً للأخطار واستدراجاً للأسرار. فالسكوت وعدم الإدلاء برأي، واعتزال الناس والنأي، دعوى زورٍ عندهم ومحال، يبادرونها بسوء الظنّ وإطلاق الخيال، فبتّ أجدني مهما فعلتُ محلّ اتهام ومحور اهتمام، ومشتبَهاً به على الدوام. فكلّ كلمةٍ تُحوّل، وكُلّ إشارةٍ تفسَّر وتؤوَّل، وكلّ الناس رامٍ بالغيب مطّلِعٌ على الضمير، وأنا بينهم أسعى كالرجل الضرير، تتقاذفه الأيدي والأرجل، فلا قائد هادياً له ولا من العونَ والنصح يبذل.

وربّما صبرت على هذه الحال أيّاماً معدودات، أو تغاضيت عن الغمزات واللمزات، ولكنّ الأمر زاد عن حدّه، وجاوز مداه واشتطّ في قصده، فضاقت عليّ الأرض والبلاد، ولم أعد أطيق صبراً على مخالطة العباد، وصرت أبيتُ مهموماً مغموما، وأمشي في الطرقات مصدوعاً مكلوما.

ودخلتُ مع نفسي في صراعٍ عميق، وجدالٍ طويلٍ دقيق: أأسلّم لهم عقلي

طلباً لراحة البال، وهل سيطيب إن فعلت لي الحال، وهل سيقبلونني دون ريبٍ وشكّ، أم أنّي سأبقى محلّاً للتهم وضرب الألسن والصكّ، وكيف أطمس ما به أرى الوجود وأتلمّس الطريق، أم هل جنيتُ منه إلّا الهمّ والكرب والضيق؟!

واشتدّ الصراع والصداع، والتردّد والتبدّد، والحساب والجواب، حتّى كدت أختنق من غير حبلٍ أو غرق، وأجنّ من طول الفكر والأرق. إلى أن جاء يومٌ نهضت فيه من الفِراش، والليل معسعسٌ ما فيه إلّا شبه قمرٍ وبعض الفَراش، وسِرت على غير هدىً تحت جنح الظلام، من غير زادٍ ولم أتلقّف العصا ولا الحسام، وتبعتُ مجرى النهر، لسويعاتٍ مرّت كأنّها الدهر، ولم أعبأ بالحرّاس رأوني أم لا، أو كيف أتحاشى دوريّاتهم مَيلا، وما توقّفت حتّى طلع الصباح وأسفر، وعن البلد ابتعدتُ فراسخ وأكثر، وخلّفتُ ورائي أهلها وخيالها، وهمومها وأثقالها، ثمّ تابعت المسير، دون أن أدري إلى أين المصير، حتّى تصيّدني بعد أيّام، رجلٌ باديةٌ على محيّاه سِيَمُ الوقار والاحترام، تفحّص وجهي وفيه تفرّس، وقال: الفتى ذو شجونٍ فيها ترعرع وتمرّس، هلمّ نتقاسم لقيمات الطعام، وأخفّف عنك ما استطعت من الهموم الجسام. فجالسته وأنا أتردّد بين الحيرة والريبة، فوجدت عنده السمع والعقل برغم الشيب والهيبة، وإذا به رجلٌ حكيمٌ مجرّب،

يبني النفوس والعقول ولا يُخرّب، كلمته تنفذ دون أبواقٍ ولا كهّان، ومقامه محفوظٌ من غير ما جيشٍ ولا سلطان، رائق الطبع الأصيل، بالغ الصبر الجميل، ووجدت عنده ضالّتي المنشودة، ولبثت في جواره سنين معدودة، تعلّمتُ فيها ما شاء الله لي أن أتعلّم، وفهمتُ أموراً ما كانت لولا تغرّبي تُفهَم.

وأدركتُ في صحبته معاني الحياة، ورحابة العقل والحرّيّة وسبل النجاة، وخطورة أن يُستعبد الإنسان للإنسان، وتُلغى إرادته ليمشي كالحيوان، أو أن يُصادر فكره وحرّيّته، وتُصنع دونه أبناؤه وذرّيّته، أو أن تُغسل بالقوّة والبطش العقول، وتُملأ بما شِيءَ من المستحيل والمعقول.

وأدركتُ أيضاً كم هم مساكينُ أشقياء، وأنّهم وإن كانوا باسمين تعساء، أولئك الّذين يسيرون في الحياة بلا هدفٍ واضح، يتسلّون يقطعون الوقت بل يقطعهم وهو لهم فاضح، فقد صيّروا من أنفسهم على الحياة عبئاً مضافا، إذ ليس منهم جديدٌ ولا يَنصرون الحقّ اصطفافا، وإنّهم في معظمهم لبيادقُ على رقعة شطرنج، وإن ظنّوا غير ذلك أو اتصفوا بالشدّة أو الدلال والغنج، وأنّ كلّاً منهم يَرى العالَم بعينيه، فهو المرجع وإن تصحّر الّذي فوق كتفيه. وأنّ الناس وبخاصّةٍ وقت المِحَن، لا يَرون في الغير إلّا الصديق المخلص أو العدوّ المُرتهَن، وكلّ من خالفهم ولو قيد أنملةٍ فليس عندهم

بمؤتمن، إذ لا يتخيّلون إلّا أحد هذين النقيضين، كأن ليس في الحياة رماديٌّ أو ما بين بين. وأدركتُ أنّ هؤلاء المساكين مضلَّلون، الصادقون منهم والمُغرِضون، وأنّهم بالشفقة أجدر وأحرى، وأنّ لكلٍّ قصّته وأسبابه والله بسريرته أدرى.

وتعلّمتُ أن أقول ما أعتقد بهدوءٍ ووضوح، وأنّه لا ينبغي مع كلّ امرئٍ الإغراق في الشروح، وأنّه لا جدوى من نقاش من لا يَسمع، وأنّ الجدال معه لا يُثمر ولا ينفع، وأنّه لا داعي للخوض في كلّ الأمور، وأنّ البراءة وهنٌ أمام الأباطيل وتُهم الزور، وأنّ مجاراة الآخرين عاقبتها الخسران، وأنّ الانجرار إلى ساحاتهم مجلبة الهموم والأحزان.

ورجعتُ بعد أن تعلّمت هذا كلّه وأكثر، إلى بلدي فوجدت حاله قد تغيّر، وكأنّ الموازين انقلبت كفّتها، والسفينة مالت إلى المظلومين دفّتها، وما هو إلّا قليلٌ حتّى انتهت الأحزان، وطوت الظالم صفحةُ النسيان، وأشرقت على الوجود الأنوار والألحان، واطمأنّ البال واستراح الوجدان، فالحمد لله الكريم المنّان.

شيطنة الخصم

قال علّام بن فهمان بن جهلان المشرقيّ: كان من أعظم أفضال الله على والدي رحمه الله أنّه التقى زمان سفره وتجواله رجلاً حكيماً حليما، علّامةً فهّامة، حلو اللسان والمعشر، أبيض المخبَر والمنظر.

وكان أبي رحمه الله قد عانى الفتنة الكبرى قبل خروجه الاضطراري من بلده، والتنكيلَ بأعمامه بعد مقتل جدّه ووالده، وأدرك الصراعات والنزاعات، وما أحدثته في المجتمع من تصدّعات، وفي الأمور من مآلات. فكانت أحداث هذه الفتن وغليانها محور أسئلته للشيخ الحكيم أوّل عهدِ صحبته إيّاه، وقد وجد عنده دواء السقيم فالحمد والشكر لله.

وفي يومٍ من تلك الأيّام، وكانا قد استفاضا في الكلام، عن اختلاف أخلاق العبيد، بين الزمانين الرديء والمجيد، قال أبي للشيخ الحكيم:

يا سيّدي، إنّي رأيت الناس في بلدي، يُكثرون القيل والقال، والخوض في الجدال، ويشتدّ بعضهم على بعض، وينالون من العقل والعرض، فيتلاحى بعد الوفاق الخلّان، وربّما افترق لأجل ذلك الزوجان، وكم سُفّهت في تلك الفتنة أحلام، واتسع الشقّ بين العوام؛ فمنهم من يُمالئُ الحكّام، يُنافح

عنهم على الدوام، وإن في قرارٍ غير موفَّق، أو رأيٍ لا يُعقَلُ ولا يُصدَّق. ومنهم من يَشتدّ في الهجوم عليهم، ويتّهم كلّ مخالفٍ بالانتماء إليهم، فلا يميز ولا يحتاط، في اتهام جميع من دخل البلاط. فالناس عنده ملائكةٌ أو شياطين، كأن لا وجود لثالثٍ خُلق من طين! وكِلا الصنفين مصدّقٌ لكلّ إشاعةٍ وخبر، تناقلته الألسن أو حملته الريح ثمّ محت من أصله الأثر، وكلاهما في فمه سيفٌ ومنشار، وفي خصومته حاقدٌ جبّار.

وصنفٌ ثالثٌ همّه قوت العيال، بليد الذهن ضيّق الحال والبال، لا يكترث لمن عدا ومن قَتل، ولا لمن بغى وما فَعل، لا يلتفت للحقّ أو للباطل، ولا يخوض مع المجنون أو العاقل. همّه النجاة والرغيف، وألّا يبيت مُشرّداً على الرصيف، وكلّ ما عدا ذلك في نظره وهمٌ وتزييف، وهو مع ذلك غير سالم، من ألسنة الطرفين ومن زبانية الحاكم.

وكنتُ يا سيّدي كلّما أصغيتُ إلى أقوالهم، أو عاينتُ أفعالهم، ألفيتهم غاضبين مُحتدّين، يَرمون بعضهم بألفاظٍ كالسكاكين، لا تخلو من الطعن والتخوين، واللعن والطرد من الدين، وكأنّهم في حربٍ مع الغزاة المحتلّين، أو الفجّار المعتدين، وما هم في الحقيقة إلّا أهل بيتٍ واحدٍ وحيّ، يتقاسمون فيه الأكل والشرب والفيّ؛ فترى الأخ طاعناً ظهر أخيه، والأب واشياً مسلماً بنيه، والزوجة لا تأمن في الخصام زوجها، وكذا البنت لا تثق في نفسها بله أمّها.

ولم يكن أحدهم يُكمل في الحجاج فكرته، أو يستعمل عقله ويُبين حجّته، وإنّما هو كلامٌ معلوكٌ مكرّر، سيّان أخفاه المجادل أو أظهر. فالكلّ يعرف ما يريد الكلّ أن يقول، ويحفظ الجواب بالعرض والطول، كأنّهم الببغاء في ترديده الأصوات، بيد أنّه جازهم بالهدوء والبراءة والتعلّم من الهفوات، فلا يجمعهم إلّا النزال، ولا يحجزهم إلّا القتال، كأنّهم الجمر تحت الرماد، وما هي إلّا نفخةٌ فتهبّ جهنّم في الواد، وكلّهم فيها ملقىً ومحترِق، وإليها هاوٍ ومُنزلق، مُدّعي الملائكيّة والسداد، وكذا المتّهَمُ بأنّه الشيطان من العباد.

قال الشيخ: هذا يا بنيّ داء الحمق والجهل، يزرع الفتنة والشقاق بين الرعيّة والأهل، يسهر على بثّه أرباب الظلم والفساد، فيسهل لهم معه حُكم البلاد، إذ يُظهر الناسُ ما يُبطنون، ولأيّ حزبٍ يميلون، ويشتدّ فيما بينهم البأس، والصراع دون كللٍ أو يأس، وعسس السلطان هانئٌ مرتاح، فالناس عنهم مشغولون بالخصومة والصياح.

وكلّما ازدادت حدّة الجهل والتضليل، وارتفع الصراخ كأنّه الصليل، واشتدّ تنافر القلوب وتدابرها، وتعبُ العقول والأجسام وتآكلها، سهل إذاً اصطياد المعارضين، والانفراد بالمبصرين المتعِبين، إذ تكفي الفتنةُ الظلّامَ مؤونتهم، وتُعبِّد الطريق لإدانتهم والتخلّص منهم، فلا تجد على ذلك من الناس معترضا، ولا لأخذ ثأرهم ناهضاً ومنتفضا. ولأجل هذا يسهر هؤلاء

على إشعال وتغذية الفتن، وضمان انتشار الجهل في العقول كأنّـه العفن، والشعب عن ذي الحقيقة أعمى، وحُسن نيّته لا أجدى ولا أغنى.

وأوّل هذا الأمر تزييف الحقائق، ومزجها بالوهم وتلفيق التّهم والوثائق، ثُمّ التقديس والتأليه، للحاكم الطاغية وأهله وذويه، ثمّ التدليس والتشنيع، على كل من يرفض الانصياع مع القطيع، ثمّ بعد ذلك الرمي بالعمالة والخيانة، والغدر وانعدام الأمانة، لكلّ من لا يرضى عنه السلطان، ومن يُعارِضه ولو بتحريك الأجفان. ثمّ يسهل الأمر على هؤلاء، كلّما أوغلت الرعيّة في الغباء، فلا يعود من داعٍ حينها للحجج ولو الملفّقة، ولا العبارات المنتقاة المنمّقة، وإنّما هي طلاسم تلقيها الأبواق، فتعلق بالألسنة والأشداق، وشيطنةٌ لكلّ مخالف، وإخمادٌ لكلّ مفكّرٍ أو عارف.

واعلم يا بنيّ أنّ هذا سلاح الضعفاء، الجبناء الأشقياء، الّذين لا يملكون حجّةً أو برهانا، ولا مؤيّداً من العقل أو سلطانا، فيُخفون ضعفهم بإضعاف الآخرين، وجهلَهم بزرع الجهل في نفوس المساكين المحكومين. فإنّما القويّ برأيه واثق، ومع نفسه متّسقٌ وصادق، يُقارِع الحجّة بالحجّة، ويشكر مرشده إلى المحجّة، ولو كان خصماً له أو ندّا، أو كان خادماً عنده أو عبدا. فهؤلاء لا تخيفهم الحرّيّة والعلم، ولا يؤرّق مضاجعهم التقدّم والسلم، أمّا من فررتَ منهم فعبيدٌ أنذال، نهايتهم ــ وإن طالت ــ تحت النعال

وفي الأوحال، كمن يحفر قبره بيده، غير دارٍ ما يُحضِّر لغده، إذ لن يستطيع الإفلات من النار الّتي أشعل، ولا غداً من العزيز الجبّار الّذي لا ينام ولا يغفل، ويرى ويحسب كلّ ما يفعل.

وقد كان يا ألبّاء المستمعين، ما توقّعه الشيخ بعد سنين، وكانت له كما المخاض إرهاصاتٌ وآلام، واختلطت فيه الأحلام بالأوهام، وكان طريقاً بالصعاب محفوفا، وبالأشواك مرصوفا، ينبذ القانطين، ويطرد منه المستسلمين واليائسين، ولكن خاتمته جميلةٌ بهيّة، وللساعين فيه بثباتٍ أحلى هديّة.

يرفضون الضيم

قال المستورد القرشي عند عمرو بن العاص سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: تقوم الساعة والروم أكثر الناس فقال له عمرو أبصر ما تقول، قال أقول ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالاً أربعاً: إنّهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقةً بعد مصيبة، وأوشكهم كرّةً بعد فرّة، وخيرهم لمسكينٍ ويتيمٍ وضعيف، وخامسةٌ حسنةٌ جميلة: وأمنعهم من ظُلم الملوك.

صحيح مسلم

حدّثنا علّام بن فهمان بن جهلان المشرقيّ قال: كان والدي في سنوات ترحاله، وبحثه وسؤاله، جاب البلاد وخالط العباد، وطلب الحكمة والعلم، وسُبل إدراك الحقيقة والفهم. وقد حدث مرّةً أنّه نزل في بلدةٍ من بلاد الروم لسان أهلها غير لسانه، وهنداهم غير هندامه، مختلفةٌ ثقافتهم، متنوّعةٌ مشاربهم، وكذلك عاداتهم وقوانينهم، وأخلاقهم وموازينهم. ولمّا كان مكوثه فيها سيزيد عن الحول، وكان لا بدّ له من مخالطتهم وتبادل القوت والقول، بذل جهده لتعلّم كلامهم، وفهم منطلقاتهم وتراثهم، وكان له ما أراد، بعد مثابرةٍ وجهدٍ وعناد.

وممّا حكاه لي عن غريب عاداتهم أنّهم كانوا يشربون الدم، يحسبونه يُعيد الشباب ويدفع الهرم، ويهيمون بالخنزير؛ يأكل قاذوراتهم ودهنه كثير. وكانوا يحبّون الفرح والابتهاج، ويتحاشون مع ذلك الزواج، فكانت تتعدّد خليلاتهم، وتتنقّل نساؤهم، كأنّهم الوحوش في الغاب، أو الطيور في السحاب. ولم يكونوا يتطهّرون أو يحتشمون من قضاء الحاجات ونيل الأوطار، ولا كانوا يسترون عوراتهم عن الأنظار، كأنّما يعيشون كالبهائم، كلٌّ خلف غريزته سارحٌ وهائم.

وكان صغارهم يتجرّؤون على كبارهم، وعامّتهم على أمرائهم، والمرأة عندهم ندٌّ للرجل، إلّا في الحظوة وأجور العمل. وللنخاسة عندهم أسماء، يُحرّمون الرقّ ويتّجرون بالرجال والنساء. وعندهم الكذب سهلٌ يسير، والصدق يحسبونه حبيس الضمير. كذا العفّة والأمانة من غريب الأمور، عليها يُقدّمون الخيانة والفجور. وكلّ بدعةٍ يُسمّونها حرّيّة، ولو كانت سقيطةً وفريّة، ولو كانت فقء الرجل عينه وشقّ أذنيه، ما دام لا يتعدّى على غيره أو عامداً يؤذيه.

وكان منهم من يأكل النيء من الطعام، يُحَرِّم الشيّ والطهي ولو مرّةً في العام. وكانوا يُجرّمون الذبح ويأكلون الموقوذة، وينهمون للحوم المجفّفة والمنبوذة. ويُمنع على العوام صيد البرّ والبحر، إلّا من سدّد القسط وأدّى الأجر، والأمر نفسه يتكرّر، مع الأخشاب والشجر، فالويل لمن خالف

ولا عذر لمن اعتذر. وعندهم غاباتٌ على مدّ البصر، ومع ذلك يمنعون إيقاد النيران خشية انتقال الشرر، وامتداد اللهب واحتدام الخطر. وكذلك عدّد لي أبي الكثير من مثالبهم، وغريب أفعالهم ومعايبهم، ولكنّهم وبالرغم من هذا كلّه كانت لهم سطوةٌ وقوّة، في كلّ صولةٍ وجولة، وفي نظام الحكم وسياسة الدولة.

قال أحد الحاضرين: وكيف يكون ذلك يا علّام، أوليس عادةً ما يرتبط صلاح الأمّة بصلاح قوانينها، واستقامة حكّامها وأفرادها، وأمانة ولاتها وعمّالها ؟!

قال علّام: صحيح، ولذلك لم يُكتب لتلك الأنظمة العمر الطويل، وكانت عرضةً للتغيير والتبديل. وممّا رآه أبي عندهم ووعاه، ويحسبه سبب السؤدد والجاه، أنّهم كانوا لا يسكتون على الضيم والظلم، ولا يتحجّجون أمام الظالمين بالحكمة والحِلم. فالناس جميعهم سواسيةٌ في الحقوق، فلا يُغصب مالَه الصالح ولا ذو العقوق. يغضبون إذا ظهر التمييز بين الخلق، وينتفضون لنصرة المظلوم وإحقاق الحقّ، فهُم وإن كان عندهم اعوجاجٌ في الخُلُق والدين، فلقد عرفوا سرّ القوّة والتمكين، فأعدّوا لذلك العدّة اللازمة، من القوى الخشنة والناعمة، فرفعوا المساواة شعارا، والعدل منهجاً ومسارا. فيستوي في شرعهم الرئيس والمرؤوس، والطليق والمحبوس.

وأعلَوا فيما أعلَوا شأن العلم والآلة، وأعانوا عليه طالبه من ذوي الفاقة والعالة، فعزّ عليهم للفسدة الانصياع، وحفظوا بذلك كلّه أمّتهم من الضياع، وليس ما تقدّم بالسبب الوحيد، ولكنّه الأساس لكلّ بناءٍ متينٍ شديد.

فيا ليت قوم أبي في سالف الزمان، حصل لهم مثل الّذي كان للرومان، فاعتزّوا بأنفسهم وذويهم، وامتنعوا على ظالميهم ومفسديهم. ولكنّهم كانوا قوماً يعبدون البشر، يطيعونهم كأنّهم بهائمُ أو حجر، يصدّقون كلّ ما يقال، ويَغرقون في سفاسف الجدال، وينشغلون بكلّ غير ذي قيمةٍ وبال، ويُغفلون ما اشتدّ منه الخطر والوبال. قدّسوا الدرهم والدينار، ونسوا النخوة وضيّعوا الجار، فلم يخافوا إلّا الفقر والحاكم، وأن يُمسي أحدهم لأخيه المعينَ والخادم. كانوا يزعمون أنّهم على دين الحقّ، وهم يؤخّرونه ويقدّمون عليه المتاع والخَلق، فما أشدّ تناقضهم، وأسرع تناقصهم. يشكون الظلمَ ويَظلمون، والفساد وهم مفسدون، والرشوة وهم راشون مرتشون، والغشّ وهم حتّى دواءهم يغشّون. طلّقوا الفنون والأدب، وتناسوا أشعار وتاريخ العرب، وضيّعوا تراثهم ودينهم، فلم يُصلّوا لربّهم ولم يؤدّوا فرضهم. مَن نَصحهم شتموه، ومن أجارهم خذلوه، ومن ضحّى بنفسه لأجلهم غدروا به وقتلوه. على الضعيف فما أجرأهم، وأمام الظالم فما أخسّهم وأحقرهم، فعنده لا حسّ ولا همس ولا نبض، وإن سفك الدم وهتك العرض، وجوّع

الخلق وخرّب الأرض، وجابها فساداً بالطول والعرض. يخافونه ولو كان صورةً أو دميةً أو نُصُبا، أو قرداً جلس على عرش الدولة أو كلبا.

أقول لو أنّهم أخذوا عن الروم حميد خصالهم، وأسقطوا سيّء فعالهم، لكان لهم مع العزّ شأنٌ وميعاد، وفي العلياء صرحٌ وأمجاد، ولكانوا وفّروا على أمّتهم آلام المخاض، وعلى بنيانهم كثير هدمٍ وأنقاض، ولكنّ لله في أقداره حِكَماً لا ندريها، نرضى بها ونسايرُها ونجاريها...


أُكْثرِيّة

حدّثنا علّام بن فهمان بن جهلان المشرقيّ قائلاً: حصل فيما مضى من الأزمان، أن ضرب الجفاف أحد البلدان، فنفق الكثير من الحيوانات، ويبست بسببه جُلّ النباتات، وصار العيش بعد ذا مستحيلا، والناجي من وجد عن موطنه بديلا.

وكان أنّ فيلاً طلب النجاة، ونجح في اجتياز مُنقطَع الفلاة، وسار حتّى وصل أرضاً خصبةً غنيّة، خضارها وافرٌ ومياهها كثيرةٌ نقيّة، فسُرّ بها وفيها استقرّ، وطاب له عيشه ونسي الأمرّ. ولكنّ كثرةَ الأشجار والثمار، ووفرة المياه وجريان الأنهار، لم تشفع للفيل الهربان، عند قاطني هذه الأرض من الحيوان، فقد هال البهائم تكسيره الأشجار، وتناوله الطعام ليل نهار، ولعبه بالماء حتّى تكدّر وأوحل، وإخافته الهوام كلّما أدبر وأقبل. فاجتمعت الوحوش والحشرات، والطير وبقيّة الحيوانات، وتبادلت الآراء والأفكار، وأمعنت النظر فيها وسبر الأغوار، وتبيّن لها أنّها لا تستطيع للفيل دفعا، ولا طرداً له ولا منعا، وأنّ أقصى ما تطيقه التكدير، والتهويل والتحذير، بحجّة أنّها تمثّل الأكثريّة، وأنّها دونه وريثة هذه البرّيّة. وأوفدت بهذا للفيل الثعلب المكّار، فلم يعدم حنكةً ولا في اختيار كلماته تردّد واحتار، وقال اسمع يا عظيم الناب، ويا سليل الفيَلة الأنجاب، قد جئتنا مشرفاً على الهلاك، لا تطمع بأكثر من شربة ماءٍ وعودٍ يُلاك، فوجدت

أشجاراً تداعب السِّماك، وعشباً غضّاً طريّاً استهواك، ومياهاً تضجّ بالعلاجيم والأسماك، ولم تَكُ ذا فضلٍ علينا ولست بالملاك، وقد اشتدّ بلاك وكثر علينا أذاك، ونحن أهل الأرض وعمّارها، وأبناؤها وحفّاظها، فإمّا ترحلُ عنّا بسلام، أو تغيّر عاداتك وأخلاقك فنحيا جميعاً بوئام. أمّا إذا ما ركبت رأسك وأبَيت، وما في ضميرك من شرٍّ أمضيت، فلنحيلنّ نهارك ليلاً أسود، ولن تجد منّا المشفق أو المنجد، ولا تحسبنّي بهذا الرأي منفرداً وأوحد، بل هو رأي الأغلبيّة بعد التشاور والعدّ، ومهلتك ثلاث ليالٍ ثمّ ننتظر منك الردّ.

فكّر الفيل في الأمر مليّا، وقلّبه في ذهنه بكرةً وعشيّا، وقال لنفسه ما للصدام ومالي، وعلام أجهد بالي، وإنّي لم أقصد يوماً الأذيّة، ولم أبيّت قطّ بالشرّ نيّة، وكيف أعارضهم ومعهم الأكثريّة، ومن حقّهم العيش بأمانٍ وحرّيّة. فارتأى الخضوع وتغيير العادات، مفضّلاً ذلك على العودة إلى الجوع أو استثارة الأزمات، وأبلغ قرارَه معشر الحيوانات، فهدأت النفوس واستراحت مختلِف الفئات. أمّا الفيل فقد اكتفى بالعشب النابت من الأرض عن ورق الشجر، ولم يعد يقرب شيئاً من الثمر، واستعان بالعزيمة على الجوع وصبر، وعن اللعب بالماء والوحل كلّ يومٍ أعرض، فبدأ جسمه يضعف ويمرض، وكلّ ذلك كُرمى لعيون الآخرين، وتقديماً لمصلحة الأكثرين على الأقلّين.

وحدث مرّةً أن شبّ حريقٌ على أطراف السهل البعيدة، فتشاورت كعادتها الحيوانات البليدة، فمن قائلٍ نرسل الطير تلقي عليه الماء بمناقيرها لينطفئ، وقائلٍ بل نتركه ليخمد مع الوقت وقائلٍ بل نختبئ. أمّا الفيل فتحامل على نفسه وتجاسر، وقدّم رأياً آخر، أن يخوض النهر ويملأ خرطومه بالماء البارد، ويتدرّع بالوحل اتقاء اللهب الحاقد، ثم يفرغ ما جمع على الحريق، فيقضي عليه بسرعةٍ قبل أن يتّسع مداه ولا يضيق. وبعد أن أبدى كلٌّ رأيه وأطال، قرّرت الأغلبيّة ترك المهمّة للطيور والأحمال، وأنّه لا يجدر بالفيل نقض العهد، بزعم أنّه أمرٌ ما منه بدّ، وحجّة حريقٍ معتاد، فعليه للجماعة الانقياد. فما كان إلّا أن اتسع الحريق وانتشر الدخان، وفنيَ الكثير ممّن حاربوا النيران، فمنهم من تفحّم ومنهم من اختنق، ومنهم من فرّ إلى البحيرة فعاجله الغرق، حتّى أمطرت السماء بعد أيّام، ولولا ذاك لفنيت الدوابّ والهوام، ثمّ عادت الحياة لما كانت عليه من قبل، كأنّ شيئاً لم يكن صَغُر أو جَلّ.

ألا لا يغترّنّ بالحياة موهوم، فإنّ راحة البال لمخلوقٍ لا تدوم، إذ لم تطل المدّة حتّى نزلت بالأنحاء جماعةٌ من السباع، يقودها ليثٌ منه الوحوش ترتاع، لكنّه يتحاشى الفيل الضخم، فليس له بِندٍّ وليس بالخصم. وأثخن الأسد في الحيوانات، فاجتمعت فيما بينها تناقش الحال والمآلات، فقال الفيل: إنّه لأمرٌ هيّنٌ سهل، أهجم على الأسد فأطرده حتّى يغادر الغابة والسهل، وإن تأبّى

وطأته وعجنته، أو ضربةَ ماموثٍ ضربته وبعيداً رميته. لم تعجب الفكرة البقيّة، وفضّلوا مع الأسد المواربة والتقيّة، واتّهموا الفيل بتعريضهم للخطر، وللموت الزؤام لا محالة أو الضرر، ولجؤوا إلى استبيان آراء الآخرين، وعدّ الموافقين والمعترضين، فكانت الغلبة للأكثريّة، ومضوا يفاوضون الأسد على مقدار الذلّ والدنيّة، فعرضوا عليه في كلّ يومٍ غزالاً فتيّا، أو خروفاً غضّ اللحم طريّا، على أن يتركهم يسرحون ويمرحون، وبأمانٍ في ديارهم يعيشون.

وقبِل الأسد دون تردّد، ولكنّه النيّة على الغدر كان يُحضّر ويعقد، فحيناً يعترض: الغزالُ هزيل، وحيناً: مللت من هذا فإليّ بالبديل، وأحياناً يصطاد خلسةً بعد الأصيل، فإن رآه أحدٌ زعم أنّـه يطارد الذئب الضليل. ثمّ جمع مرّة الحيوانات، وقال اسمعي يا آكلة النباتات، ويا صغار المفترِسات، الأسد سيّد الغاب، ولا يُعقل أن يشرب في نفس اليوم مع ذي الناب، فإمّا يخلي لي ضفاف الماء نصف أيّام الأسبوع، وإمّا عن اتفاقنا أعلن الرجوع. فخافت البهائم وارتاعت، وأسرعت للفيل تحثّه على القبول وما لانت ولا ماعت. فطاوعها على مضض، وطبعاً لنفس السبب والغرض، تقديم مصلحة الجماعة، والسمع للملك والطاعة. غير أنّـه لم يصبر على هذه الحال، فغادر تلك الأرض إذ العيش فيها صار من المحال، ومضى يبحث عن أرضٍ جديدة، لا أغلبيّة فيها ولا استفتاء على اللقمة

والطريدة. أمّا أهل الأكثريّة، فقد أمسَوا للأسد لقمةً سائغةً هنيّة، وتشتّتت منهم البقيّة، تحكي المواعظ والأخبار، عن اجترائها على القَنوع وخضوعها للجبّار.

قال أحد الحاضرين: أتريدنا إذاً يا علّام ألّا نكون من المستشيرين، وألّا نستطلع آراء الناس فيما يعنيهم، ولا نتّبع رغباتهم ومراميهم؟ هذا إذاً لنكوصٌ على الأعقاب، وعودةٌ للوراء نستحقّ بها العقاب.

قال علّام: ليس هذا بالتحديد المراد، وإن كنتَ لم تبتعد كثيراً عن الصواب والرشاد. إذ لا بدّ من النصح والإشارة، والاستفهام والاستشارة، لكلّ من يلي أمور الغير، ويريد بهم الخير. ولكنّ لكلّ مقامٍ مقالا، ولكلّ واقعةٍ رجالا، فما كان من شأن العوام استشيروا فيه، وعمل برأيهم فيه العاقل النبيه، ومن هذا العلاقة بين الحاكم والمحكوم، ولكن ليس بالضرورة كلّ قانونٍ ومرسوم، فما كان متعلّقاً بفنٍّ واختصاص، كالطبّ والاقتصاد والحرب والقصاص، فهذا يُستشار فيه أهلُه وعيالُه، وذوو الخبرة فيه لا جهّاله. ومتى ما أصبح الأمر تبعاً للأعداد، دون تمييزٍ ولا إعداد، فانتظر إذاً الفوضى والفشل، وكثرة المشاكل والزلل.

بيت العنكبوت

حدّثنا علّام بن فهمان بن جهلان المشرقيّ يوماً حديثاً معقّداً على غير عادته، متكلّفاً على غير سجيّته، واضحاً ومبهماً في آن، كأنّه السرّ بين الجهر والكتمان. وكنّا إذ ذاك نناقش معه بعض مذاهب المترَفين، في التراث والأخلاق والدين، واحترنا أيّ السبل نسلك ونقتفي، وأيّ المناهج ننتقي ونصطفي. فهؤلاء ما هم بالفلاسفة فندرُسَهم، ولا بالعلماء فنتبعهم، ولا بالأطبّاء فنقصدهم، ولا بالحكماء فنسألهم... ولكنّهم أهل صولةٍ وبيان، وغالباً ما يفتح لهم أصحاب القصر والصولجان، في شتّى البلدان، نوافذهم وأبواقهم، ويكثر عليهم عطفهم وإغداقهم.

وعندما رأى "علّام" الجباه مقطّبةً والعيون غائرة، والألسنة متردّدةً والعقول حائرة، قال: دعونا الآن من هذا لبرهة، فإنّي آخِذكم والزمانَ في نزهة، أحكي لكم قصّةً ذات عبرة، تنضح بالحكمة والخبرة. وذاك أنّ أبي رحمه الله كان قد سأل أستاذه الحكيم في أحد الأيّام عن الفقهاء والمتفيقهين، ومذاهب المتكلّمين، وكيف أنّهم جميعاً يدّعون اتباع العقل، واحترام النصّ والنقل، ثمّ هم يختلفون ويتخاصمون، وبآرائهم يتراشقون ويتقاتلون، حتّى مُدّعو التسامح والوئام، ودعاة المحبّة والسلام، يفتحون

أذرعهم للخلق أجمعين، إلّا لمخالفيهم من نفس الملّة والدين، فكيف تستقيم دعاوى مناهجهم في العقل والعلم، مع البَون الشاسع بينهم في الفتاوى والفهم؟!

قال الشيخ الحكيم: هذا يا بنيّ سؤالٌ جوهريّ، وطالب الحقيقة بإمعان النظر فيه حريّ، وجوابك هناك في الركن كامن، فاطلبه مدقِّقاً فيما هو فيه كائن.

قال أبي: فنظرت في الركن وتمعّنت، فلم أجد كتاباً ولا ورقةً أبصرت، فليس إلّا شباكٌ نسجتها عنكبوت، والركن يلفّه السكون والسكوت. فبثثت ذلك للشيخ بخيبة، فأجابني مبدّداً ما علاني من الريبة:

الجواب يا بنيّ في بيت العنكبوت مجتمِع، ولا تتعجّل فالفهم على المتعجّل ممتنِع. هذه العنكبوت الّتي تَحقِر، وهي في عينيك على ضئيل شيءٍ لا تقدِر، والّتي لا تصمد شبكتها للمسةٍ منك، ولا تنفعك في الضيق أو الضنْك، هي في الحقيقة مصمِّمةٌ بارعة، لأسرار علومٍ شتّى حاويةٌ جامعة؛ فبيتها فيه تناسقٌ عجيب، يُدرك مداه الحاذق الأريب، وخيوطها أذهلت أذهان علماء الأحياء، وأورثت عقولهم الحيرة والإعياء، فهي مُركّبٌ معقّد التصنيع، علّمها إنتاجه الخالق البديع، بعضها مخصّصٌ للصيد، تعلق به الحشرات كأنّه القيد، وبعضها ممتدٌّ كالطرقات، تجوبها العناكب في لحظات، وبعضها جامعٌ كالأركان، يثبّت دعائم البنيان. وهي فوق ذلك كلّه متينةٌ للغاية، مع أنّها في دقّتها قاربت النهاية،

إذ لو جدلوها ليصنعوا حبلاً غير ثخين، لحملت بسهولةٍ الفيل السمين. فانظر إلى بيتٍ بهذه الأركان المجتمعة، من علمٍ وفنٍّ وقوّةٍ مانعةٍ ممتنعة، هل حمى ساكنته من الهواء، أو وقاها قيظَ الصيف وقَرَّ الشتاء، أم هل كفاها الأخطار والأرزاء؟ أين بعلُها فيه وأين بنوها، وأين أقرانها وأهلها وذووها؟ أين متانة خيوطها من كبير الحشرات، أو صغير القوارض والحيوانات؟ وما يا ترى جمالُ الصنع وبهاء المنظر، إن كان عن بُعد أقدامٍ لا يُرى ولا يُبصَر؟ وما فائدته إن كان لا يدوم، أو أنّ مفارقته من ألزم اللزوم؟

هذا يا بنيّ حال المتحدّثين _ من غير علمٍ _ بلباقة، ذوي البشرات البرّاقة والكلمات الرقراقة، عندهم من العلم قدرٌ غير قليل، لكنّه لا يكفي لاستنباط الحكم من الدليل، وعندهم في الفلسفة أسلوبٌ أشبه بالسحر الجميل، يعزف على أوتار المنطق والممكن والمستحيل. يورِدون في كلّ موقفٍ آيةً أو حديثا، ويستشهدون بآراء أقوامٍ ظهروا قديماً أو حديثا، لكنّهم مع ذلك ينقضون من الدين عُراه، ويُراكمون لا يُزيلون من الشُّبَه ما اعتراه، تختلف مسمّياتهم، وتتنوّع لغاتهم، ولكن يجمعهم أنّهم للفتنة يبذرون، وفي نار الخلاف والفرقة يَنفخون، ومن تراث الأجيال يُنفّرون ويُحذّرون. يُخطّئون جميع خلق الله إلّا ما ندر، ويُطلقون على مخالفيهم الأحكام بشتّى الصور، كأنّما أدركوا مُطلق الحقيقة، وحدهم دون غيرهم من الخليقة، أو أنّهم فلتات زمانهم، ورسل الخلاص

إلى أقوامهم. فهم كما العنكبوت الصغيرة، اتخذوا من كلّ فنٍّ نبذةً يسيرة، فمِن النصّ والأثر خيطاً رفيعا، ومن العلم اسماً بديعا، ومن الحكمة رونقا وتناسقا، ومن المنطق ظاهراً متطابقا... لكنّه في الحقيقة مزيجٌ كثير التجاويف، يختلط فيه القويّ بالضعيف، والغثّ بالسمين، والوهم باليقين، فلا يصلح لبناء العلم، ولا لنقض الوهم وتسديد الفهم. دروبه كثيرة التلوّي، يكاد فسادها الهاوي يدوّي، فلا هي محكَمة الترابط والتعاضد، ولا هي تسلم من التعارض والتناقض والتباعد، تتعدّد فيها المناهج والأساليب، فتخدع إلّا المجرّب اللبيب، وهذا بحدّ ذاته دليل انحراف، وفي وهاد الهوى علامة انجراف.

وعمَل هؤلاء أنّهم يُبرِزون للناس جمال الدقائق، ويزيّنونها كما تُزيّن المجالس بالنمارق، يغضّون الطرف عن العيوب والأخطاء، ويواجهون الضعف بالطمس والإخفاء، ولربّما كانوا بوهن آرائهم عالمين، أو بغرورٍ عنه متغافلين. وداء الكبْر من أعظم الداء، وطالما عزّ فيه العلاج والدواء، إذ ليس لحجاج المتكبّر غايةٌ أو هدف، سوى معارضة الخصم في عنادٍ وصلف، ولو اقتضى ذلك نسبة الأبيض للأسود، ومناداة العبد الذليل بالسيّد. فمذهب هؤلاء المتكلمين وأمثالهم قائمٌ على الادّعاء والافتراء، والتهجّم والالتواء، قصدهم كقصد العنكبوت من البيت، وسيلة صيدٍ تذر المُستهدَف كالميْت. بيتٌ برغم ما فيه من الشِّراك، ومن السحر والخفّة والمتانة في العراك،

لا يصمد أمام التحدّيات الكبيرة، ولا يُنقذ الغارق في أوحال الوهم والحيرة. وإنّه وبرغم ما يحدثه من الشقاق، والجدل والخصومة والفراق، لا يراه الناظر من بعيدٍ إلّا ضلالا، أو هباءً أو غثاءً أو خيالا.

فإن أردت يا بنيّ أن ألخّص لك الأمور، في كلماتٍ تغنيك عن الكثير من السطور، فانظر النهج المتّبَع في التفكير، وطريقة التدبّر والتقدير، فإن كان واحداً في جميع المسائل، سهل وزنُه في عقل المستعلِم العاقل. ثمّ انظر إلى المتكلّم أثابتٌ على ما زعم، أم يتقلّب مع الرياح كالطيور والنعم. وهل تتّسق أدلّته مع ما وضع من ميزان، أم يجمع الغثاء ويصفه بعدُ بالبرهان؟ ثمّ انظر أخلاقَه واستقامتَه، فإن رضيتهما فاستقرئ إذ ذاك دعوته وعلامَته، وإلّا فأعرض عنه وعن آرائه، فإنّما هي تَبَعٌ لمراده وأهوائه، ولو أورد في كلامه ألف حديثٍ وآية، وحلف بأغلظ الأيمان على صدقه في النيّة والرواية، فحشدُ حشو الكلام أمرٌ يسير، بينما تحرّي الحقّ بحقٍّ لا يُتقنه إلّا النزر اليسير.

قال علّام: وأنا أيّها الكرام، أوصيكم وصيّة هذا المعلّم الهمام، فأمعنوا فيها النظر واشغلوا بها الأذهان، واتبعوا الحقّ متواضعين للعزيز المنّان.

هذه وصيّتي لكم... والسلام.

غطرسة التراب

حدّثنا علّام بن فهمان بن جهلان المشرقيّ عن أبيه عن رجلٍ حكيمٍ قال: اجتمعَت ذات يومٍ أربع حفناتٍ من التراب، كلٌّ منها بلون، فأخذت تنتسب وتحتسب، وتتعالى وتتفاخر، وتتمايز وتتناظر.

فالأحمر يزعم الصدارة، لما فيه من الحديد رمز القوّة والجسارة، وأنّه أصل كلّ طوبٍ وفخّار، فحقّ له ــ على زعمه ــ بهذا الفخار.

والأصفر يقول أنا شبيه الذهب، تاج الشطآن والصحارى والكُثُب، إن صفوت أدخلوني التنّور، فكان منّي الزجاج والبلّور، وما يقرّ أعين الحور، القوارير ذوات الخدور، وإن تكدّرتُ فبما خالطني من كبريت، ومن قدرةٍ على الإحراق والتبكيت والتفتيت.

أمّا الأبيض فيتيه بلونه الناصع، وخلوّه من كلّ شنيعٍ وفاقع، وأنّه رمز الصفاء، والطهارة والنقاء، وأنّه ينفع الإنسان في البناء، وجمع أركان الأشياء، وتقريب الأرض للسماء، كذا في الصناعات العديدة، والأدوية المفيدة.

وأمّا الأسود فبالآخرين يهزأ، فثراء الأرض فيه بزعمه مخبّأ، فهو الغنيّ المجهول، حامل الخير للبساتين والحقول، والغابات والسهول، وفيه من صنوف المعادن الشيء الكثير، وما ضرّه سواده فهو له شرفٌ وليس بالحقير ولا بالفقير.

ثمّ احتكمت هذه الحفنات الأربع، إلى الصخرة الأرفع، وهي صخرةٌ حكيمة، كبيرةٌ قديمة، ذات مكانةٍ عاليةٍ عظيمة، تتربّع على قمّة جبلٍ كبير، على بقيّة الهضاب والتلال أمير. فذكرت كلٌّ منها دعواها، وبيّنت حجّتها ومعناها، وحطّت بعدُ من قدْر الأخريات، فهيهات أن تخضع لغيرها هيهات، والصخرة في هذا مستمعةٌ صامتة، لا هي مستفهمةٌ ولا معلِّقةٌ أو شامتة.

وبعد أن أفرغت كلّ واحدةٍ من المتخاصمات دلوها، وتعبت من جدالها وأعيت متنها وحقوها، عمّ الصمت المكان، حتّى ظُنَّ أن قد توقّف لساعةٍ الزمان، ثمّ دوّت ضحكةٌ قويّةٌ في الأرجاء، أذهلت القائلات وطير السماء، ثمّ قالت: أوّاه ما أغبى هذه الحفنات وأجهل، وما أندر العقل وأجمل. أيتخاصم التراب مع التراب، على ميزاتٍ هي كالسراب، وكلّ مُدّعٍ مُخطئٌ ولو أصاب، مجافٍ للحقيقة والكتاب!

أما علمت الحفنات أنّها لخصائصها موهوبة، لم تبذل في تحصيلها جهداً ولا في بنائها طوبة، وأنّها مهما علت فبالأقدام تداس، وعليها تسقط نجاسات الأجناس، وأنّها لم تختر لونها ولا موطنها، ولا معدنها ولا حتّى اسمها، وأنّها وإن اختلفت في الطعم واللون، واتسع بين صفاتها الفرق والبَون، فسيبقى نسبها إلى التراب يعود، ولن تبرح يوماً عن الثبات والجمود، فلا إرادة لها ولا اختيار، ولا عزيمة ولا نيّة ولا إصرار. فعلام إذاً التكبّر والغرور، ولأيّ شيءٍ التمادي في المخاصمة والفجور؟!

صحيحٌ أنّ الأبيض ينفع حيث لا ينفع الأصفر، وأنّ الأسود لا يغني في حالٍ عن الأحمر، ولكنّه تفاضُلُ أثرٍ وسيرةٍ وسريرة، لا تفاضل جذرٍ أو نسَبٍ وعشيرة.

ثمّ انظري أيتها المتشاكسات، إلى أبناء آدم في النواحي والجنبات، ماذا أورثهم التكابر والتفاخر، غير التدابر والتقاتل والتناحر؟ ثمّ هم جميعاً يولدون من ماءٍ ورَحِم، سواسيةً لأبٍ واحدٍ وأُمّ، يأتون إلى الدنيا ضعفاء، وهم مساكينُ أبرياء، لا حول لهم ولا قوّة، فلا غذاء بعد ولا علم ولا فتوّة، ثمّ هم يَطعمون نفس الطعام، ويضربون في الأرض ضرب الهوام، فليس لدعاوى تمايزهم معنى، ولا لتعالي أصولهم حقٌّ أو مغنى.

ثمّ انظري إلى الفحم والألماس، كلاهما مركّبٌ من نفس الأساس، غير أنّ الترابط بين اللبِنات مختلِف، ولكلٍّ منهما طريقه الّذي عُرف وأُلِف، فهذا شفّافٌ برّاق، لأجله يسيل اللعاب وتُبذل الأوراق، وكم في سبيله من الدماء يهراق. والآخر أسودُ محتقَر، لا تُرى له في المعالي قدمٌ ولا أثر، ولكنّ الأوّل عزيزٌ غريب، والطريق إليه صعبٌ مهيب، أمّا الآخر فذو نماءٍ ووفرة، تخرجه الأرض إلى الناس بكثرة. فليس الأول يغني عن الثاني إن طُلبت النار، أو ريمت تنقية الماء بابن الجمار. كما أنّ الثاني ولو غسلوه لألف عام، فلن يُداني أخاه في الصفاء والنظام. فليسعد كلٌّ بخصائصه وصفاته، فليس يطعن ذلك في أصله أو ذاته.

ثمّ انظري إلى اختلاف الأتربة والأحجار، وكلّها من الأرض هي لها الموطن والدار، فمنها الملتهب كحمم البركان، ومنها سريع الغضب والشرر كالصوّان، ومنها ليّن الملمس كرِمال الصحراء، ومنها الخشن ذو النتوء والشديد كالصلفاء، ومنها الهشّ كالحوّار، ومنها الصلد الّذي يُعلي البناء ويقيم الجدار، وكلّها تُعَدّ من الحجارة، ولا تتفاخر على بعضها بالأصل أو بالجدارة. وكذا يجب أن تكون الحفنات، وما يخرج منها من حيوانٍ أو نبات، أو إنسانٍ يسعى في الجنبات، فوالله ثمّ والله،

ليس الفرق بالأصل والنسب، وإنّما بالأثر الطيّب في الأرض ونُبل الطلب، وطِيب الذكر والذكرى، ونشر الخير والبشرى، وما خلا ذلك فمضيعةٌ للوقت وهباء، ووهمٌ يرين على عقل صاحبه وهراء.

فتعلّموا أيّها الناس مِن التراب، فمنه المصدر وإليه المآب.



ورقة البلّوط

قال الراوي: كنت في الزمن القديم، مررت برَجلٍ حكيم، له في العيش خبراتٌ وتجارب، وفي الحياة نظراتٌ ومذاهب. وكان يزعم أنّه عرف تاريخ الإنسان، والحضارة والعمران، وأنّه فوق ذلك يا إخوان، يفهم لغة الطير والحيوان!

وممّا قصّه عليّ من غريب الأخبار، قصّةٌ تناقلتها عبر البلاد الأطيار، مفادها أنّ الأسد ملِك الغاب، جاءه من بلاد الصين زائراً سنجاب، فحدّثه عن جمالها وبهائها، ومائها وهوائها، وعن أنّهم حصّلوا من الرقيّ قامةً سامقة، ومن الحضارة والتقدّم قمّةً شاهقة. وأنّ لكلّ حيوانٍ عندهم علامة، تدلّ على الأصالة والكرامة، والميزات المستدامة. وتبيّن كذلك سنّ كلّ ذي روح، وما فيه من الندوب والجروح، وموطنه وملّته، ومُفترِسه وفريسته.

وما كاد السنجاب ينهي كلامه، حتّى أعلن الأسد عزمه ومرامه، بأن يحضّر مملكته ووحوشها، فيرفع قدرها ويُعلي عروشها، مقتدياً في ذلك بأهل الصين، محتذياً حذو رعايا التنّين.

فأمر بتخصيص ورقة بلّوطٍ خضراء، لكلّ حيوانٍ في الغابة العذراء، وهي ورقةٌ مدبّبة الأطراف، ليّنة الأعطاف، ليست عريضةً كالجرّة، ولا مسنّنةً كالإبرة، وعلى كلّ واحدةٍ منها علامةٌ مميّزة، لمكانة صاحبها معزِّزة، تُبيّن أعاشبٌ هو أم لاحم، وأبيضُ لونه أم قاتم، وماذا يأكل وأين ينام... وأيّ شيءٍ يَرى في الأحلام!

وهكذا كان، فسُرّت الحيوانات بأوراقها، وتاهت على الدنيا بأحمالها. ولكنّ راحة البال لا تدوم، وقد حذّرهم ذلك الغراب والبوم، فالغاب بأسره تحيّر وارتبك، ودارت أمّ رأسه وعَشره شبك. فقد رعى وحيد القرن في أرض الغزال، واصطادت الذئاب في مرابع الرئبال، ومن أفراس النهر من أضاع ورقه، فكيف يبقى بينهم... آهٍ ما أحمقه. واعترض القرد على الثعبان، إذ تسلّق الأشجار من غير ما استئذان، وعلى ورقته واضح الكلام، بأنّ مسكنه بين الأعشاب والآجام.

كذلك اختلطت على الثعالب الأمور، إذ جاء في أوراقها "تعيش في الوكور"، وما هي بالعقبان لا ولا بالصقور، وإنّما مكانها في الأرض في الجحور. ولكنّها الدودة الرعناء الحمقاء، مسبّبة المشاكل جالبة الشقاء، إذ أخطأت كتابة مسكن أبي الحصين، فأصبح مطروداً شريداً مكبّل اليدين.

وليست هذه لها الزلّة الوحيدة قَطّ، إذ نال مثلها الضبع والضفدع والأيل المرقطّ. فحُرم هذا المأوى والآخر المرعى، وارتفعت الشكوى وحُملت إلى الأسد الدعوى.

وبرغم وضوح البيّنة، والمآسي البيّنة، من فساد منهج الورقة في الميزان، والأخطاء الصادرة من الديوان، إلّا أنّ الأسد أبى إعادة المياه إلى مجاريها، والأشياء إلى مستحقيها، فإنّ ورقة البلّوط ذات مضاء، ومسُّها إخلالٌ بالنظام والقضاء، والمدوَّن فيها ناموسٌ مقدَّس، لا يُردّ ولا يُعدّل ولا يُدَنَّس، مهما كان وزن حاملها في الكفاءة والمهارة، والخبرة والجدارة، وعلى الوحوش المعترضة التعايش مع الحال الجديد، والتزام أحكام القانون الرشيد، وإلّا حلّ بها العقاب الأليم الشديد.

وسكتت على مضضٍ الحيوانات، فنزلت بها الأمراض والآفات، فاستنوق الجمل، وطلب جوّ الفضاء الحَمَل، وعاش الثعلب فوق الشجر، وبات النسر وسط الحفَر، وهزل الفيل وجاع التمساح، واستأسدت الضباع وماءت الكلاب واعتادت الغربان النباح! وما ذاك إلّا بسبب ورقة البلّوط وتقديمها على ذوات الأرواح خسيسسها وعظيمها، فإنّما الأسد بنابه وزئيره، والغزال بقوامه

ونفيره، والفطرة والحرّيّة ركنان في الطبيعة، فإن عَلتهما الورقة كانت النتائج فظيعةً مريعة.

هنا تنحنح أحد الحاضرين، ثمّ قال: يا لعقول السامعين، إنّ هذا لعجبٌ عجاب، أيصدّق هذا الكلام ذوو العقول والألباب؟!

فأجابه الراوي وقد علت ثغره ابتسامة، على بلوغ مرامه من القصّة علامة:

بلى، وأعجب منه ورقة البلّوط عند البشر، وهم عنها ساكتون كأنّهم حجر، تُفرّق بينهم في الألقاب والمراتب، وتميِّزهم في المعونة والرواتب، والحقوق والواجبات، وحتّى أحياناً في اختيار الأزواج والزوجات! فتمنح هذا حقّ العمل وإن كان كسولا، وتحرمه الآخر وإن كان عالماً مسؤولا، وتفتح أبوابَ البلاد لوافدين، وتغلقها دون الآخرين الزائرين. بها ينال ابن الأصفر الذهب، ويُترك لابن الأسود التعب والنصَب، كأنّها هي القيمة لا من يحملها، أو أنّ بها من العلم ما يميّزها ويرفعها. ولو أنّها اقتصرت على التوثيق والتعريف، من غير تمييزٍ أو تزييف، لهان الأمر ولان، ولظهر الحقّ وبان، ولكنّه في النهاية صنع إنسان، لا يخلو من العيب والنقصان.

ألا ما أفقر مقتنيها لو درى، وما أشقى طالبها لو يبصر ويرى، فما هي إلّا كتلك الّتي فرض ملك الغاب، لا فرق بينهما في الميزان والحساب، غير أنّهم سمّوها بطاقة الهوية، أو الإقامة المؤقّتة المطويّة.

مالك الجزاز

قال الراوي: بلغني فيما بلغني أنّ شرذمةً من الجرذان اجتمعت يوماً على صعيدٍ واحد، وكان كلٌّ منها قد أتى من جهةٍ غير بعيدة، فتشابهت على اختلافٍ مشاربها، والتقت مع التمايز في أهدافها ومآربها، واتخذت باطن الأرض موئلاً ومسكنا، وظاهرها ملعباً وموطنا.

ثمّ إنها لمّا لذّ لها المقام وطاب، شرعت تحلم حتّى جاوزت بأحلامها السحاب، واتفقت على ترسيخ حكمها، وتوطيد بنيانها، وقرّرت أن تبدأ بالخلد المسكين، فصنعت له الكمين تلو الكمين، حتّى انتهى في بطن الثعلب أبي الحصين، واستحلّت من بعده أنفاقه وداره، وأكلت طعامه وباعت إزاره. ثمّ طمعت بعد ذلك في جحور الأرانب، الجميلة طويلة الأذنين والشارب، فأغرت بها قطيع الذئاب، وأرشدتها في اصطيادها وسط الضباب، فأمست الأرانب كلّها ما بين مخلبٍ وناب، وناب الجرذان من بقاياها وآثارها ما ناب.

ثمّ تطلّعت بنات أمّ راشد إلى أعلى فأعلى، فوجدت الغزال أبهى وأحلى، وألفت السنجاب يسعى ويسرح، وعلى الأغصان يلعب ويمرح، ورأت الطير في أعشاشها ترتاح، ثمّ تطير تحملها الرياح، وتغنّي الحياة كلّ صباح، فغاظها جمال ما رأت، وأنّها الدهرَ لا سمت ولا ارتقت... فأرسلت تدلّ النمر على الغزال السمين، تغريه بافتراسه للتوّ والحين، وأعانت على اصطياد السنجابِ الثعبان، وكلّ طامعٍ به من معشر الحيوان، ونادت الغربانَ والنسور، فأفنت العصافيرَ وشداة الطيور. وكذا فعلت مع الفراشات، وكلّ جميلٍ ومفيدٍ من النباتات، وسارت بالاحتيال والمكائد، وبرعت في الخيانة ونصب المصائد، حتّى صارت لها تحت الأرض مملكةٌ عظيمة، وفوق ثراها خرابةٌ وغنيمة.

ومع الأيّام، غدت مملكة الجرذان هذه ملاذ ومقصد كلّ هاربٍ من الهوام وفار، خائفٍ على نفسه القصاص والنقمة والثار، من هو من أرضه منبوذٌ مطرود، وباعُه في الإفساد معلومٌ ومشهود. وكان من دأب هذه المملكة ألّا تنظّف الأنفاق والممرّات، وما تحت

الأرض من الغرفات والحجرات، وإنّما تترك فيها الأوساخ والقاذورات لتتجمّع، فتقود إليها كلّ ما لذّ من الطعام وأمتع، من دودة الأرض إلى الحلزون، ومن اليرقات إلى كلّ صرصارٍ مأفون. فكان وسخُها مالَها وباب غَنائها، وذهبَها الأسودَ وكنزها وسِرّ ثرائها.

ومرّ على هذه الحال، زمان قصُر وما طال، وحلّ بمملكة الجرذان ما لم يكن عندها في الحسبان، إذ نزلت بها الأمراض، وتفشّت فيها من الأوبئة الأعراض، والتمّت على المكان البوم، وشنّت على الجرذان أعتى هجوم، وأحكمت سطوتها على الأنحاء والأرجاء، ترصد كلّ ما يتحرّك ما بين التراب والسماء، فما سلِم منها كبيرٌ ولا صغير، ولا عابر سبيلٍ في المملكة ولا أمير. ثمّ كان ما كان، ومرّت الفيَلة بالمكان، فداست الأرض بأقدامها، وانهار تحت وطأتِها من المملكة المهترئة بنيانها، فأضحى عمرانها خرابا، وأمست أحلامها سرابا.

هنا تدخّل قائلاً أحد السامعين: أيعقلُ هذا أيّها الناصح الأمين؟!

فأجابه الراوي: وأيّ عجبٍ تراه يا هذا فيما قصصتُ ولماذا؟ وإن عجبٌ

ففعلُ الصعاليك المتملّكين، بالخلق عباد ربّ العالمين، في تلك الممالك المعروفة، ذات الزخارف الموصوفة، المستأسدة جرذانها، المستعلية أقزامها، المضلّلين العباد، والناشرين في الأرض الفساد. ظنّوا بذهبهم يُغيّرون ألوانهم، يمحون تاريخهم ويَغسلون عارهم. أشدّ من الحرباء في تلوّنها، وأخسّ من الضباع في دناءتها. قطنوا منازل فرعون وثمود وعاد، فما اتعظوا ولا آبوا للرشاد، فلا يُرجّي منهم ذو الهمّة والعقل، لا الخير ولا الإنصاف ولا السلامة ولا العدل.

ولو أنّهم حصروا في أنفسهم شرَّهم، أو قصروا فيما بينهم مكرَهم، لهان بعضَ الشي المصاب، ولكُفِيَ الناس صنوف المشقّة والعذاب، ولكنّ هؤلا المتسلّطين، أشباه الفراعين، يعيشون عقدة الدون والنقصان، فساءهم أن يهنأ بالعيش إنسان، فأبَوا إلّا نشر الشرور، وتخريب الممالك والدور.

وضعوا في يد إبليس أياديهم، فتضاءل الغَرور أمام كيدهم وتدابيرهم، وعقاربهم وأفاعيهم، فكانوا كالبغيّ تدّعي الشرف والعفّة، وتريد أن تقلب ببنات الحيّ الطاهرات الكفّة، أو كالفاسق الفاجر يدّعي

الاستقامة، ويضع الجبّة والعمامة، ويُقرئ الناس أصول الدين، باثّاً فيها ضلالات الشياطين. فأيّهما يا صاح أعجب وأغرب، وإلى الحقيقة أدنى وأقرب، هؤلاء الأعاريب في بلاد فسادستان، أم نُظراؤهم في مملكة الجرذان؟!!

لم يتركوني أكمل

قال الراوي: إنّي محدّثكم اليوم حديثاً عجيباً غريبا، لا أملك له شرحاً ولا عن أصله تنقيبا، وذلك أنّي رأيت مناماً من أعجب ما يكون، يستغربه العاقل والمجنون، ولم أكن نمت ليلتها على الجوع طاويا، ولا من الخوف شاكيا، وما كنتُ تخاصمت قبلها مع أحد، لا الزوجةَ ولا الولد ولا التجّار وأهل البلد. فلا أرى إلّا أنّ وراء هذا المنام سرّاً دفينا، واللبيبُ من يستخرجه فيشفينا.

رأيت فيما يرى النائم أنّي كنت يوماً في رحلة صيدٍ رفقة صاحبَين، نتمشّى في السهوب ونجوب الدروب وقد اصطدنا أرنبين، وغزالاً وحمامتين، وأكلنا وشربنا، وبعد الغداء استلقينا وطربنا.

وفجأةً وعلى حين غرّة، أحاطت بنا الضباع المكفهرّة، مكشّرةً عن أنيابها منتفخةً في ثيابها، فقيّدتنا جميعا، وحملتنا إلى ملكها سريعا، فسجدَت بين يديه، وقدّمتنا هديّةً لأنيابه وشفتيه، فسُرّ بنا أيّما سرور، واستدعى الوزير المغرور، وقال: «أبقهم عندك في مأمن، يا صاحب الخبرة والفنّ، وأغلق عليهم في بيتك المُقفل، ولا تلتفت عنهم ولا تَغفل». فأجابه أن سمعاً

وطاعة، يا صاحب الصدارة والبراعة. وأخذَنا وزيره هذا الذئب، ورمانا في بيته فيما يشبه الجبّ، وأدار بيننا قسمة الأيّام، فكنت الثالثَ المُعَدّ للالتهام. فمرّ عليّ يومان من أصعب ما يكون، وكدت فيهما أصاب بالجنون، إذ أسمع صاحبيّ يستغيثان ويستجديان، ويصرخان فيُؤكلان، ولا أملك لهما إلّا الدعاء، وندب حظي والبكاء، حتّى جاءنيَ الدور، كأنّني غزالةٌ أو ثور، خارت قواه وفُغرت فاه، وجفّت في جسمه الدماء والمياه.

وكنتُ خلال هذه الأيّام الثلاثة أسمع حديثهم، فعرفت سرّهم وجهرهم، وما ضرّهم أن تكلّموا أمامي، فعمّا قريبٍ ينال السبع لحمي وهم عظامي. عرفتُ أنّ سيّد الغاب، سبعٌ فتيٌّ شابّ، لا يُخشى منه ظفرٌ ولا ناب، وأنّه كانت قبله طائفةٌ من الأسود، في السهول والقيعان تسود، تآمرت عليها الحيوانات وتضافرت جهودها واجتمعت أنيابها حتّى قتلوا ملك الزئير، وشرّدوا من بعده الصغير والكبير، واستبقَوا السبع الخسيس، صاحب الباع في الغشّ والتدليس، ليُنَصِّبوه عليهم في الظاهر ملكاً إذ كان من طائفة السباع، ولكنّه لا يملك حلّاً ولا حبكاً وليس له أمرٌ مطاع، فالأمر للرؤساء الجدد الكبار، إرضاؤهم صعبٌ ومخالفتهم دمار، وهو فوق ذلك صاحب لسانٍ وبيان، يعجب منه الجنّ والحيوان.

هذا وقد اقتسم الأعيان بينهم الغابات والقفار، وما جابوه من الديار؛ فالفيل له السهوب والشجر، وما فيها من ثمر، وله نصف ماء البحيرات والنهَر. أمّا الأدغال فللنمر الكبير، لا يشاركه في أمرها قردٌ ولا وزير، إلّا ما كان من قوارض وجرذان، فهي من نصيب العجوز الثعبان. وكذلك الجوّ للنسر العالي، لا يعزّ عليه فيه النفيس الغالي. وأمّا ما تبقى من الأراضي المبعثَرة، فللتمساح الضخم ولرأس الخنازير القذرة. فكانت صغار الوحوش وبقيّة الجموع، تُبدي للسبع الطاعة والخضوع، ليس خوفاً منه ورهبة، وإنّما اتقاء شرّ من يقف خلفه من العُصبة. وكان هو يعطي الشلّة ما تطلب وزيادة، فبرضاها تدوم له السعادة. فأغرى الفيل باستباحة المزيد من الأراضي، بالغدر طبعاً لا بالتراضي، والنمرَ بالبطش المنظَّم، ولو سال في غابه كلّ دم، والثعبانَ بأن يأكل فوق حاجته، ولو استنزف ذلك كلّ طاقته. وكذا النسرَ والتمساح والخنزير، فقد حضّهم على كلّ بشعٍ من الأمور خطير، وأهدى هذا معشرَ الأرانب، وذاك ما في الغابة من السناجب، ولم يبخل على نفسه من كلّ شيءٍ بنصيب، فهو بالطبع الملك الأريب اللبيب! وأتى بما لا يخطر على بال، من أساليب الغش والاحتيال، حتّى عمّ الفساد وانتشر، ولم يسلم منه ذو روحٍ ولا شجرٌ أو حجر.

وجاءت السبعَ اليوم من الوحوشِ جماعة، تشكو له ما يلاقي القوم من الضنى والمجاعة، تقول يا قويّ الناب طويل اللِّبَد، قد نالنا من الشقا ما لا يوصف أو يُعَدّ، فالماء يكاد ينفد ويجفّ، والفيل يحجزنا عنه ولا يرقّ ولا يعفّ، والطرائد كلّها مصادَرة، من كلّ من جمعكم به حلفٌ أو مصاهرة، وما مرّةٌ رفعنا فيها الصوت بشكوى، إلّا ونزلت على رؤوسنا البلوى، حتّى إنّ الحشرات استضعفتنا، واستهانت بنا وما هابتنا. وشاعت في البلاد المجاورة الأخبار، وتناقلتها الدوابّ والأطيار، بأنّ غضب السماء علينا نزل، والأمر بالمسخ بنا قد حلّ، وأنّ سباعنا غدت تأكل الحشيش، به تتقوّى وعليه تعيش، وأنّه من كان هذا طعامه وغذاءه، هان شأنه وخسر ذكاءه، وأنّه اليوم آكلٌ كسول، وغداً لا محالة مطلوبٌ مأكول... فجِد لنا حلّاً أيّها الفاضل المأمول، فإنّك عنّا غداً لمسؤول.

هنا نهض السبع وزأر، وقال ما هذا الخطب والخبر، أيحلّ بكم ضيمٌ وأنا حيّ! لا عشتُ إذاً سيّداً لأهل هذا الحيّ. ولكن كما ترون وتسمعون، وتدركون وتعقلون، فإنّ الرؤوس الكبيرة، لها صولةٌ خطيرة، فلسنا نُحسن صراعها، ولا نستطيع دفاعها، والرأي عندي أن نسايرها، ونستجديها ولا نعايرها، وإلّا تضاعف الهمّ والغمّ، ولحقنا الضيم والذمّ. ولقد طالما حاولتُ لكم نفعا، واستجديتُ للرعية منها كمّاً ونوعا،

ولا أكتمكم سرّاً فقد طاوعني الأصدقاء، ووعدوني الخير والعطاء، ولكنّ الأيادي الشريرة، أرادت لنا العيشة المريرة، فلم تتركني أحكم، ولا استطعتُ بسببها أنام وأحلم، فعرقلَتْ كلّ إصلاح، وخرّبت للخير كلّ مفتاح، ولكن ثقوا بي واطمئنّوا، فلا بدّ أنّ القدر عليكم سيحنُّ...

وبعد انصراف الوفد، أرسل الملك في طلب الثعلب الوغد، وقال أيّها اللبيب المحتال، أحتاجك للتوّ والحال، إزرع الفتنة بين الوحوش لتقتتل، ولتنصرف عنّا وتنشغل، وبُثّ فيها من يقولُ ويُردّد، بأنّها تعيش عصر هناءٍ وسؤدد. واحمل الخبر إلى مجلس الأعيان، ليكونوا مما يجري على بيّنةٍ وبرهان، ولك عندي هديّةٌ وعرفان، وأقرن من أجود الخرفان...

ثمّ دعا بي ليأكلني، وينسى الهمّ بالتمنّي، وما إن غرز بي أنيابه حتّى استيقظتُ، حامداً الله أنّي في سريري لا غامرت ولا أُكلتُ.



كذبةٌ وكذبة

قال الراوي: سأحكي لكم قصّةً طريفةً ظريفة، فريدةً مفيدة، حصلت لي قبل أيّامٍ عديدة، إذ التقيت صاحباً لم أكن رأيته من زمنٍ بعيد، فاحتضنته وعاتبته وطالبته بالتبرير وكِلت له الوعيد، فضحك وقال: اسمع إذاً منّي المقال.

قلت: هات.

قال: ركبتُ يوماً البحار، مع جماعةٍ من التجّار، ميمّمين نحو الهند، وقاصدين أرض السند. وفوق صفحة المحيط، والموج بالفُلك محيط، ظهر فجأةً من حيث لا ندري، حوتٌ كبيرٌ نحونا يجدّ ويجري، يكاد طوله يجاوز الفرسخين، وفمه يتّسع لمائةٍ من السفن بل قل مائتين، ولمّا دنا منّا فاغراً فاه، وكادت تُلقينا في جوفه المياه، امتدّت أذرع أخطبوطٍ عملاق، من الماء وأحكمت على رأسه الإطباق، وسحبته إلى قعر المحيط المظلِم، فنجونا بفضل الله من موتٍ مفجعٍ مؤلم.

قلت: على رسلك، تمهّل في الكلام، أتروي ليَ الحقيقة أم المنام؟

قال: بل الحقيقة ولا شيء غيرها، ولم أحك لك إلّا اليسير من أمرها.

فإنّا لمّا وصلنا شواطئ الهند، ونزلناها وقد نال منّا التعب والجَهد، استقبَلَنا أهل البلدة بالتهليل والترحاب، كأنّنا عندهم من أعزّ الأصحاب، وأطعمونا وسقونا، وبتنا عندهم ليالي فأكرمونا، وعندما هممنا بالمغادرة، وأردنا باستكمال رحلتنا الطويلة المباشَرة، أبى جند زعيمهم ورفضوا، وقطعوا طريقنا واعترضوا، وقالوا إمّا معنا تعيشون، وإمّا ههنا تُقتلون. فلمّا حاولنا جدالهم، رفعوا سيوفهم ورموا نبالهم، وقتلوا منّا بضعة عشر، وأعادونا إلى مساكنهم في ظَفر.

ثمّ وضعوا لنا الطعام والشراب، وبدؤوا الغناء والرقص بالحراب، فلم نفهم شيئاً ممّا حصل، وصرنا كالعالق بين لبّ وقشرة البصل. ثمّ ما لبثنا بعد ليال، أن أتانا من زعيمهم مرسال، بأنّ الليلةَ عيد الأسود والنمور، ولا بدّ من تزيين الدور وإشعال البخور، وتحضير الهدايا والأضاحي، من نفيس ما يوجد في النواحي، وأنّنا أغلى ما في ديارهم، فسيقدّمون بعضنا لسباعهم! فأُسقط في أيدينا، ونُحنا على حالنا وبكينا.

وأتى الوقت الموعود، وألقي بأصحّنا طعاماً حيّاً للنمور والأسود، وضحك القوم وهاموا، وشربوا حتّى سكروا وناموا، فاستغللتُ الفرصة وبعض من وافقني على ركوب الخطر، وفررنا في الأدغال ليلاً قبيل

السحَر، ولم نتوقّف عن الجري والهرولة، حتّى عبرنا ثلاثة جبالٍ ثمّ سهلاً ما أطوله! وهناك أخذنا قسطاً من الراحة وافيا، وأكلنا طعاماً كان لأجسادنا شافيا. ثمّ أخذنا نكتشف المكان الّذي فيه نزلنا، فإذا قد سُدّ الطريق الّذي منه ولجنا، وإذا قِرَدةٌ تحيط بنا من كلّ جانب، تتقافز حولنا كأنّها الأرانب، ولكنّها كانت بالمئات بل الآلاف، فغرق ذهني في الحساب وطاف، ثمّ ما لبثت القردة أن بدأت تقف الواحد على الآخر، وتتكاتف وتتناظر، حتّى صنعت بأجسادها هيكل قردٍ عملاق، وقالت بصوتٍ واحدٍ كأنّ أفواهها الأبواق: من أنتم أيّها الغرباء، وماذا تفعلون في أرض النجباء؟ فذهلنا ممّا رأينا، ورحنا نحُكُّ أعيننا بأيدينا... أقردةٌ تتكلّم وعملاقٌ يتشكّل، فكيف لا نتلعثم وفي الإجابة نتمهّل؟! ثمّ هدى الله أحدنا فقال: أيّها القرد العظيم الحال، إنّما نحن جماعةٌ من محبّي الخير المفتّشين عن السلام، وعن نبتةٍ تنشر بين الناس الوئام، جئنا إلى هذه الأرض باحثين، بعد أن بَلَغتنا أخبار أزهارها ونباتاتها والرياحين، فقلنا لا بدّ نجدُ فيها مرادنا، ثمّ نعود بالبشرى إلى بلادنا، ولكنّ مجموعةً من النمور طاردتنا، واصطادت بعضنا ومزّقتنا، فلم ينجُ منا إلّا من ترون، بعد أن اقتربنا من أرضكم ذات اليُمن والصون، فلم تلحق بنا النمور إليها، غير أنّها توعّدتنا

باصطيادنا والقردةَ فيها، فأخذنا نبحث عن جنابكم لنخبركم، وننذركم الكيد ونحذّركم. فركب القردةَ الغضبُ الشديد، ثمّ أعلنت النفير والتصعيد، وتركتنا واتجهت نحو الجنوب، تشنّ على النمور الغارات والحروب، فانتهزنا الفرصة ونهضنا، وجمعنا شملنا وهربنا.

ثمّ مررنا بوادٍ غريب، أشجاره تتلوّى بشكلٍ عجيب، فحاولنا السير على أطرافه، سائلين الله من ألطافه. وقبل أن نتجاوزه بأقدام، مالت علينا شجرةٌ أغصانها مسنَّنةٌ كالأسنّة والأقلام، وقالت إلى أين إلى أين، ومن أنتم يا قرّة العين، أتمرّون من ههنا بالمجّان، دون مكوسٍ وضرائبَ وأحزان ؟! ثمّ التفّت على أحدنا منها الأغصان، والتقمته في لحظةٍ فكأنّه ما كان، فأطلقنا لأقدامنا العنان، وفررنا من أمامها كأنّنا الجرذان.

قلت: محمومٌ أنت لا بُدّ، أوصل بك التعب إلى هذا الحدّ؟

قال: ليس بي شيءٌ ولست بمريض، ولا بمجنونٍ فكُفَّ عن التعريض، وإن كنتَ اكتفيتَ من السماع اكتفيت، أو أردت المزيد زدتك ومضيت.

قلت: هات ما عندك هات، فما قصّتك بأعجب من الحياة والممات.

قال: ومضينا في طريقنا نحو الشمال، نتحاشى الأخطار وعليها نحتال،

حتّى وصلنا بلاد السند أخيرا، ووجدنا فيها الراحة وخيراً كثيرا، ولكنّنا كاد ينفد مالُنا ولم نجد من تجارتنا الشيء المُقنِع، فكيف إلى بلادنا نعود ونرجع؟ فإذا بائعٌ ذو جرّةٍ متجوّل، خلنا لوهلةٍ أنّه متسوّل، يقترب منّا ويقول: أيحتاج السادة إلى بعض الحلول؟ عندي ماءٌ للظمآن، وشرابٌ يروي العطشان، وعندي كذلك دواءٌ للبرص، وعلاجٌ للبطالة يستدعي من العمل الفرص، وبساط الريح للثريّ المستريح، وعَقّار الهذيان من عشبة القنّب والمارجوان، وأشياء أخرى كثيرة، نادرةٌ ومثيرة. فقلنا له نحتاج العودة إلى بلادنا، وقد قلّ مالُنا ونفد زادنا. فقال: في هذه الحال، لا حلّ إلّا بالترحال، عبر البركة السحريّة، وخوضها لكم منّي هديّة، ولا أطلب إلّا شيئاً واحدا، آخُذ أحدكم خادماً مساعدا. فلمّا هممنا بالاعتذار، كان قد أطبق غلمانه علينا الحصار، ولا أدري من أين ظهروا، ولا كيف أتوا وحضروا. فقادونا إلى زاويةٍ مخفيّة، فيها بركة ماءٍ كُدرتها جليّة، وأشار رأسهم إلى رأس أحدنا، فقيّدوه ورمَوه إلى جانبنا، أمّا نحن فألقوا بنا في البركة بلا متاع، وأجزعَنا الغرق والضياع، وأحسسنا بها تسحبنا لقعرٍ بعيدٍ غير مستقرّ، ونحن لا نملك أن نصعد أو نفرّ، حتّى ابتلعتنا دوّامةٌ سريعة، وقذفتنا بعدها على طرف واحةٍ في صحراءَ مُريعة، فلم نُصدّق أعيننا، ولم نفهم ما جرى لنا.

قلت: وبقيتم أحياء! وكيف بلغتم هذه الأنحاء؟

قال: لم نكد نستجمع بعد ما حدث أنفاسنا، حتّى خرج لنا من تحت الرمال كائنٌ صخريٌّ عجيب، مظهره مخيفٌ وصوته مُريب، قال إلى أين الوجهة هذه المرّة، ففهمنا أنّه صاحب المحتال ذي الجرّة، فأخبرناه بقصدنا، وسلّمنا لله أمرنا، فوضعنا جميعاً في منجنيق، إلّا أسمننا فقد وجده بقصعته يليق، ورمانا رميةً واحدة، جاوزنا بها الفراسخ العديدة والحواضر المتباعدة، حتّى هبطنا شرقيّ البلد، ولم يَعُد لدينا على الشقاء صبرٌ ولا جلد، فحملَنا بعض الرعاة إلى البيمارستان، حيث اعتنوا بنا ووجدنا مجدّداً الراحة والأمان، والحمد لله الكريم المنّان. هي ذي حكايتي باختصار، فاروها إن شئت لمن يقصدك من السمّار.

قلت: رويدك رويدك، أتنتظر منّي أن أصدّق ما حكيت، وأن أنقل للناس ما رويت، فوالله ليتّهمُنّني بالجنون، وبأنّي حزت فيه الدرجات والفنون. الرأي عندي أن آخذك للطبيب، أو أعرضك على مجرّبٍ لبيب، فليس فيما ذكرتَه شيءٌ يُعقل، أو يُمكن وقوعه أو على وجه التشبيه يُحمَل، فاعذرني فيما أنا بك فاعل، فحديثك ليس بحديث رجلٍ عاقل.

قال: والله لأمركم عجيبٌ أهلَ هذا البلد، وغباؤكم لا أرى له من حدّ،

أتُكذّبون ما عانيت وعاينت، وقاسيت وعايشت، وتصدّقون ولاة أموركم الظالمين، المكرةَ الغاصبين! يسرقونكم ليلاً ونهارا، ويكذبون تحدّياً وفخارا، وخِفّةً بكم واستهزاءً واستهتارا، ثُمّ يعدونكم الإصلاح، ومحاربة الفساد بالجند والسلاح، وزجّ المهدرين أموالكم في السجون، وترون أنّ غيركم فيها لا يكون. ويقول واحدهم اصبروا قليلاً قليلا، حتّى أعيد حياتكم عيداً جميلا، ثمّ يُقاسم شركاءَه المكاسب، ويضربونكم في كلّ صوبٍ وجانب، ثمّ يعودون لإطلاق الوعود، وأنتم بغبائكم المعهود، تصدّقونهم في الغد المكذوب والوهم والمنشود... ألا متى رأف الذئب بالشاة، أو طَلبت الزوجةُ الضرّةَ الفتاة، أو تنازل حاكمٌ عن سلطانه، رغباً لخصومه وأعوانه! فأيّ القصّتين بالتصديق أحرى، وعلى أيّ الطرفين الجنون أجرى؟!

قال الراوي: فأسقط في يديّ ولم أدر ما أقول، ومضى وتركني غارقاً في ذهولٍ لا يزول.



الكذبة البلهاء

قال الراوي: كان لي صديقٌ كثير الأسفار، يحبّ خوض المغامرات واقتحام الأخطار، وكان كلّما عاد يروي لنا العجيب من الأخبار، عمّا شاهد في البقاع البعيدة والنائي من الأمصار. وممّا حدّثنيه مشافهةً فماً لفم، وهو عندي غيرُ متّهم، هذه القصّة القصيرة، وهي مع ذلك مفيدةٌ ومثيرة، فألقوا لها أسماعكم وشنّفوا بها آذانكم...

قال: حططتُ رحلي مرّةً في بلدةٍ من بلاد شرقستان الواقعة ما بين الصحراء والجبال الخضراء، وكان أهلها طيّبين لدرجة السذاجة، يصدّقون كلّ ما يسمعون، ويتناقلونه كالسرّ به يتهامسون، حتّى ولو كان خبراً عن الصدق عاريا، ومن المنطق خاليا.

أمّا سبب تهامسهم فلم يكن إلّا خوفهم من الحاكم، فهو شخصٌ جدّ مزاجي، لا تفهم ما يريد كأنّها الأحاجي، يكاد كلّ يومٍ يقلب الموازين، ويبدّل المراسيم والقوانين، ويعاقب الناس بلا جريرة، ولا جريمةٍ خطيرة، ففضّل الناسُ السكوت على الكلام، والخمول على الإقدام، والتغابي مدى الأيّام.

وكان من غريب ما استحدثه هذا الحاكم، الظالم الغاشم، أن عيّن له وزيراً للسعادة، لا للعلم ولا للريادة، يُنسي القومَ الهمومَ والأحزان، ويسلّيهم عن الكبت والحرمان، إذ بلغه أنّ سكّان البلدات المجاورة أكثر سعادةً من أمّته، وأعظم حبوراً من سكّان بلدته، فخاف أن ينتقل هذا الوباء، من أولئك إلى هؤلاء، فيطلبوا السعادة جاهدين، ويستيقظوا من بعد أن كانوا نائمين. فقال خيرُ الدفاع الهجوم، فلأبادر بإصدار المرسوم، وتعيين المعاون الغشوم، وزيراً للسعد الموهوم، فينفّر من كان له طالبا، ويُرضي أحمقَ به راغبا.

وهكذا كان، وأصدر الوزير أمره إلى الأهالي، بالابتسام في النهار كما الليالي، وما جزاء اللامبالي إلّا الإهانة والغرامة، والسجن ولا كرامة. كما وأمر نافخي الأبواق، بالنعيق في الأسواق، وأمر بدقّ الدفوف والطبول، وعيّن لها من يجهل من الفنّ الأصول. كذا وألزم من كان لديه حانوتٌ أو دار، بتزيين كلّ نافذة وجدار، يطلّ على الشارع العام، وأمهلهم لذلك ثلاثة أيّام.

ولم يكتف الوزير بهذا الحدّ، إذ لا بدّ للسعادة من سند، فلم يجد إلّا بيوت الفجور والدعارة، ليغرسها في كلّ حيٍّ وحارة، لتنشر الفسق والمجون، ترويحاً عن كلّ محزون. وأتت كلّها على سبيل الصدفة، قرب باب المسجد أو أمام الشرفة!

وبعد ذلك كلّه بقيت في نفس الحاكم حاجةٌ وغاية، فالشعب ليس سعيداً كفاية، فأمر بإدخال التحسين، على السجون والزنازين، فألبس السجّانين الثياب الورديّة، والمسجونين تلك البنفسجيّة، وأمر بتغيير لون الأرضيّة، وتزيين فتحات التهوية، وحتّى المجاري التحتيّة... ولا يزال الشعب غير راضٍ ولا قانع، وإن ارتسمت على الوجوه ابتساماتٌ كالبراقع.

ثمّ بعد ذلك بزمنٍ غير بعيد، وصلت أخبار التجديد الفريد، إلى سلطان البلاد العتيد، فأرسل إلى البلدة وفداً ليتعلّم، ويتنوّر ويتفهّم، كيفيّة محاربة الحزن والكمد، والقضاء على الهمّ والنكد. فطاف الوفد وجال، وقابل السمّان والبقال، والنسوة والرجال، وكلّهم يبتسمون، ويحمدون النعمة الّتي فيها يرفلون، ويشكرون ولا يشكون، ويدعون بطول العمر، للحاكم وليّ الأمر. حتّى الزنازين لم تصدر منها أيّ ضجّةٍ أو شكوى، كيف وقد أمسى روّادها في الحقيقة موتى! وحتّى الأحياء في الطرقات، ما بهم من الحياة إلّا رمقٌ وومضات، ولكنّهم صدّقوا الكذبة وردّدوها، والحقيقة في سرّهم كتموها، وفي أرض النسيان وأدوها، وقتلوا الأمل والرجاء، فعاشوا خلف الضحكة في عناء، وعاش حاكمهم في الكذبة البلهاء.



عصابة الأشرار

المتاجرة بمحبّة الأخيار

قال الراوي: كان لي صديقٌ كثير التجوال، دائم الحلّ والترحال، شغوفٌ بصحبة التجّار في الأسفار، ومولعٌ بالنفيس من البضائع والأخبار.

وقد حدّثني يوماً عن بلدٍ من بلاد المشرق، لواؤه من قديم الزمان يرفرف ويخفق. أهله أناس طيّبون، الخيرَ لجميع الناس يحبّون، والتقديرَ للصالحين في أرجاء الأرض يُكنّون. وهم أيضاً أناسٌ بسطاء، يعيشون بين الشدّة والرخاء، وهناء العيش مع الشقاء، وكانوا بالرغم من ذلك من الراضين السعداء.

قال: والتقت هناك قافلتنا بأخرى مُريبة، آتيةٍ من بلادٍ غريبةٍ بعيدة، يرتدي من فيها ملابسَ التجّار، بَيد أنّهم ـ كما تبيّن فيما بعد ـ من أخطر الأشرار. كانوا يبيعون ويشترون، ويأخذون ويعطُون، ولكن لم تكن تجارتهم البضائع، ولا الحصائد أو الصنائع، وإنّما كانوا يبيعون الكلام والأوهام، والرؤى والأحلام. يَعرضون على الناس صكوك الغفران، وتملّك أراضٍ في أعالي الجنان، ولكلٍّ منها ثمنه في الميزان.

ميدانهم قلوبٌ بيضاء، اعتادت الصدق والصفاء، دخلوا إليها من باب حبّ الخير، وحمل البشارات إلى الغير. كلامهم معسولٌ جميل، فيه الكثير من التقدير والتبجيل، لرؤوس الصالحين في كلّ أرضٍ وجيل، ولكنّه ككثيرٍ من الأقاويل، وهمُه كثيرٌ وصدقه قليل.

زعموا محبّة الأصفياء، والانتصار لهم من الأعداء، والاقتصاص ممّن عارضهم عبر الزمان، أمن الإنس كان أم من الجان. يُكثرون عنهم الرواية، كأنّ لهم بهم دراية، ولكنّه إكثارٌ في الحقيقة مندوح، والافتراء فيه مكشوفٌ ومفضوح، وزد على ذلك ما يضيفونه من الأعاجيب، على رواياتهم والألاعيب، وكلّ ذلك باسم الصالحين، وبدعوى محبّة الاستقامة والدين، والناس بحسن طويّتهم يُصدّقون، وببساطة سجيّتهم يُقبلون ويَشترون؛ فهذا يأخذ الجنّةَ بدينار، والآخر الفردوسَ بقنطار، وذاك حرزاً من الشياطين يختار، وغيره الدعاء الّذي يجلب الرزق ويُنجّي من النار، والثمنُ للمقتدرين المال، وللفقراء الاتّباع والامتثال.

وربّما ضارب بعضهم على بعض، فوضع الأخبار وادّعى الكشف والعرض، أو أنّ الوليّ جاءه في المنام، يأمره بتبليغ إرادته للمنتجَبين من الأنام، فما أسهل الكذب عندهم والافتراء، وما أحقرهم من قومٍ أنذالٍ أشقياء.

ولكي تكتمل أركان الخدعة والتدبير، وليُسلم لهم الناس دون ريبٍ أو تفكير، اختاروا عدداً قليلاً من أهل البلد، من ذوي الصيت الحسن والحسب والولد، وأغدقوا عليهم العطايا والهدايا، زاعمين أنّ نسبهم يرجع إلى خير البرايا، وأنّهم أصحاب فضلٍ مسلوب، وأنّ مقامهم عن الناس بكيد الكائدين محجوب، وأنّهم _ أي التجّار _ عبيدهم الأوفياء، وجندهم الأشدّاء، يعلنون لهم الطاعة والولاء، وأنّهم سيعيدون لا بدّ حقوقهم، ويبسطون على الناس حكمهم ونفوذهم. وهكذا سكنت إليهم القلوب، وفُتحت لهم الدروب، وتبعهم الكثيرون حبّاً وطمعا، وتحاشى معارضتهم الآخرون خوفاً وجزعا. حتّى ذوو العقل والعلم والرشاد، لم يعد لهم صوتٌ يُسمع في البلاد، فمنهم من اعتزل وسكن، وعِلمَه في صدره دَفن، ومنهم من لم يعدم لتبيين الحقّ حيلة، فاختفى دون أثرٍ أو مات غيلة.

وعادت القوافل من حيث جاءت، إلّا قافلةَ هؤلاء فإقامتها امتدّت وطالت، وعندما أمعنتُ النظر في الأمور، في طريق عودتي من تلك الثغور، وجدت أشباه هذا الصنف من التجّار، في الكثير من البلاد والديار، وخاصّةً البعيدة المنسيّة، والمنعزلة بين الجبال مطويّة، وكأنّ بينهم وثاقاً خفيّا، وعزماً يحرّكهم قويّا، ورباطاً على هدفٍ يجمعهم، ورأساً ليس يُرى قطعاً يوجّههم.

ثمّ مررنا على واحةٍ في الصحراء، يُقيم بها أحد العارفين الأتقياء، نَسَبه إلى الصالحين موثّقٌ معروف، وقدْره عند الأولياء محفوظٌ وموصوف. فبثثته شكوكي وريبتي، وأفرغت بين يديه دلوي وجعبتي، فقال: هؤلاء يا بنيّ عصابةٌ من الأشرار، اتّخذتنا مطيّةً لنيل الأوطار.

فهناك من يتاجر بمحبّتنا لجمع الأتباع والأنصار، وهناك من يفعل لجمع المال ومن الكنوز الإكثار، وهناك الباحث عن الجاه والشهرة، أو النفوذ والسطوة المستترة. فهؤلاء ضررهم محدود، واحتواء آثار فسادهم ممكنٌ موجود.

أمّا من ذكرتَ فمرامُهم أبعد ومكرهم أشدّ، وسهامهم أخطر ورميهم أسدّ، فكم باسم العدالة يَظلمون، وباسم الحرّيّة الناس يستعبدون، يُرهبون الخلائق بذريعة الأمن، ويطمسون العقول بدعوى الفنّ، بداية كلامهم حلوةٌ كالعسل، ونهاية مكرهم ضياع المِلل والنِّحَل. فسادُهم ما له حدّ، والخراب من بَعدهم ما منه بدّ. قصدهم الأوّل والأخير عرش السلطان، وبسط نفوذهم على سائر الأصقاع والبلدان، وما الأولياء في دعواهم إلّا ستار، والمريدون بيادقُ يحرّكها الكبار، وربّما حاربوا المصلحين وسالموا الفجّار، وضربوا أعناق أهل الحقّ أو فرضوا عليهم الحصار، فما المبادئ عندهم إلّا وهمٌ يصدّقه موهوم، وكلّهم لمزيد السطوة متحرّقٌ منهوم.

فأنذِر من خلفك من الناس، ونـوّر العقول واستنفر الحرّاس، وحذّرهم البساطة والبلاهة، والبطالة والسفاهة، وأوصهم باتّباع النور المبين، وحقّ اليقين، بعيداً عن العواطف والأهواء، والمنافع والإغواء، وألّا يتّبعوا من عمله الهدم لا البناء، وشغله الشاغل مخاصمة الأموات والأحياء. وإيّاهم ثمّ إيّاهم من ردّ الحقّ بالباطل، وتقديم الجاهل على العاقل، أو دفع الحقيقة بالوهم، وتفضيل العاطفة على العلم، وإلّا كانوا للماكرين لقمةً سائغةً هنيّة، ولأوطانهم أسباب الفناء والمنيّة.

قال الراوي: حكى لي صاحبي كلّ هذا وهو يتصبّب عرقا، ويتلفّت في مكانه قلقا، يخشى على قومه ويغار، ويخاف أن يصيبهم الدمار، وقد حمّلني هذه الأمانة، وإنّي أعدّ كتمانها غدراً وخيانة، فاسمعوها وعوها، وإلى من خلفكم احملوها.

اللهمّ قد بلّغت... اللهمّ فاشهد.



في بلاد الواق واق

قال الراوي: حدّثنا عابر سبيلٍ راوياً شيئاً مما رآه في بلاد الواق واق، وهي بلادٌ كان قد سار ذكرها في الآفاق، وكانت درّةً كاللؤلؤ البرّاق، قِبلةً للحالمين والطامحين، وشوكةً في عيون الحاقدين والطامعين، ثمّ خبا سناها مع الزمان، وذوى نجمها في فضاء البلدان.

قال: كنتُ في إحدى أسفاري الكثيرة، الخطيرة والمثيرة، مررت على بلاد الواق واق، في رحلةٍ تُتلف المطيّ وتقطّع الأعناق، فوجدتها بلاداً بهيّة الطلعة والمنظر، بجمالها تسير الأشعار تتغزّل تتبختر، وأهلها قومٌ كرماءُ بسطاء، لطفاءُ ظرفاء، غير أنّ بهم شيئاً من الخبل، لا يخفى على ذوي الحجى والمقل. فكأنّما الله جَلّ وعلا يعطي الإنسان دائماً الجميل من الصفات، مشوبةً بقدْرٍ من السيّئات، فلا يكاد يخلوا أحدٌ من هذه أو تلك، ومثلها حياته بين الهناء والضنك.

المهمّ في الأمر أنّي وصلت تلك البلاد قبيل المساء، وبحثتُ عن نُزلٍ أجد فيه الراحة من العناء، وكانت مَضيَفة جميلة البناء، فدخلتها مفعماً بالتفاؤل وحسن الرجاء. ولكم أزعجني هناك التقليد العجيب، والنظام المملّ الرهيب، فقد طُلب منّي ملء الكثير من الأوراق، المغرقة في التفاصيل المملّة أيّما إغراق، من مكان وزمن الولادة، وحالة الطقس و"أرفق بها إفادة"، إلى بلد الإقامة

وجهة القدوم، ومن صادفت ضاحكاً في طريقي ومن أبدى الوجوم، كذا والاسم واللقب، والكنية والحسب، واسم الأب والعمّ والخال، والأمّ والزوجة والعيال، وفيها أيضاً هيئة الشعر ولون العينين، وطول القامة وعرض المنكبين، وماذا آكل وأشرب، وإلى أيّ المذاهب تراني أقرب، وكم أنوي البقاء في الأرجاء، وماذا أحمل لأهل هذه الأنحاء، ومن سأكلّم وما سأزور، وهل في النزل أبقى أم سأكتري إحدى الدور، وما إلى ذلك ممّا لا جدوى منه ولا طائل، إلّا استنزاف العقل وإجنان العاقل. وما كدت أنهي تعبئة الأوراق وأستلم مهجعي، حتّى تنامى صوت الأذان إلى مسمعي، هزيلاً يأتي من بعيد، كأنّه تائهٌ في الظلام الشديد، وحيداً لا يشاركه أذان، ولم يَقم لتلبيته إنسان، مع أنّهم على ما بلغني من أهل الملّة، فقلت لا بدّ لذلك من علّة، وعندما سألتهم عن طريق المسجد ارتابوا، وقرأت على وجوههم أنّهم بي قد خابوا!

قلت ما لي ولهم، شأنهم لا يعنيني ولا يهمّ، أخرجُ في هدأة الليل أتمشّى، ثمّ أعود إلى النزل لأتعشّى، وبعدها آوي إلى النوم، وأنسى الهمّ والقوم. ورحت أسير والطرقات يلفّها السكوت، حتّى وصلت هناك إلى حانوت، فيه الناس كأنّهم في نفير، يتحلّقون حول طاولةٍ عليها قالب حلوى كبير، وألفيتهم منقسمين إلى فئتين، ويراهنون على اللعب ويدفعون الضعف والضعفين، أمّا التحدّي واللعبة، ففي التهام الحلوى لمن تكون الغلبة! وكان كلّ فريقٍ يختار

من يمثّله، ويدفع إليه بالمال ويشجّعه، ليواجه خصمَه أمام الطاولة، ويكون له شرف المحاولة. أمّا الجولة فحيناً تطول وحيناً تقصر، والمشجّعون لا ينوبهم منها إلّا الفتات وذا يندر. وأعجب من ذلك أنّهم غالباً ما يعيدون اختيار الخاسر، الضعيف الفاشل المكابر، فهو أحبّ إليهم مِمّن عداه، وإن كان أجدر من صاحبهم وفي كثيرٍ من المهارات يتخطّاه. والفائز على مدار التحدّي، الأبرع في الاحتيال والتعدّي، فيحوز النصيب الأكبر من الغنيمة، ويمنع خصمه من كلّ ذي قيمة. وجميع الوسائل مباحة، وكلّ الأسلحة متاحة، فلا أخلاق ولا ضمير، ولا احترام ولا توقير.

وقفت أراقبهم وأطلتُ النظر، فوجدت أنّ من الصعب الفوز في هذا التحدّي والظفر، فالقالب اللذيذ سريع الانكسار، وأمل حيازته سالماً عاجل الانحسار، فهي ملهاةٌ لا رابح فيها، إلّا من حرّكها دون أن يوافيها. وعدت إلى الحانوت أجرّ على هذه البلاد أذيال الخيبة والأسى، وأسأل نفسي أيّ عُقارٍ عقلُ رأسها حسا.

قال الراوي: والآن، وبعد سنواتٍ وسنوات، أتاني من تلك النواحي آت، أكّد لي أنّ أهلها لم يصلحوا حالهم، ولم يؤوبوا لرشدهم ويطلبوا فالهم، لا بل إنّهم نقلوا عدوى تخلّفهم إلى جيرانهم، حجّاج ديارهم وزوّارهم، فاستنّت بهم بعض البلدان، كالنفطستان والبذخستان، مع شيءٍ من التعديل والتغيير، في قواعد اللعبة والتحوير.



الملك العادل

جلس علّام بن فهمان بن جهلان المشرقيّ ليلعب مع أولاده لعبة الملك والعساكر، واختار لابنه الأكبر دور الملك ظنّاً منه أنّ ذلك سيسرّه، ولكنّ الولد رفض وأبى بشدّة! وعندما سأله والده عن علّة رفضه أجاب قائلاً: «إنّك يا أبي لا تفتأ تحكي لنا الحكايا عن الحاكم الظالم ونهايته السوداء، ولا أريد أن أكون ذلك الحاكم في سيرته، ولا أن تكون نهايتي كنهايته».

قال علّام: يا ولدي، ليس الحكّام جميعاً كذلك، وإن كان أكثرهم مخالفاً للحقّ مجانباً للصواب، بعيداً عن العدل ولا يخاف الحساب، فلا بدّ من زمانٍ لآخر ومن أرضٍ لأخرى أن يلي الناسَ حاكمٌ عادلٌ مستقيم، يُنصفهم ويَفديهم، ويُشاورهم ويَستفتيهم، يؤدّي الحقوق ويَكره العقوق. وإنّي محدّثكم حديثاً ليس بالأوهام، عن أحد هؤلاء الأعلام، فأعطوني آذانكم وافتحوا جيّداً أذهانكم، ونعاود بعد سرد القصّة اللعب، فعساه يدفع عنّا التعب ويجُبّ.

بلغني أنّ ملكاً عاش في زمنٍ غير بعيد، اتصف بالعلم والحلم والرأي السديد، وكان خير سائسٍ لأمّته، وخير حارسٍ لملّته. ولم يكن ــ رحمه الله ــ قد

طلب المُلك كمن سبقوه، ولم يغصبه كمن خلفوه، وإنّما سعى بالإصلاح، ودعوة الحبّ والتغيير والنجاح، حتّى هبّت على أشرعته الرياح، وحملته الأكفّ حملاً إلى قصرٍ لم يكن يوماً بمستباح، وبايعه الأشراف والعوام عليهم ملكا، ووعدوه الطاعة ما دام مستقيماً حُنُكا.

ومرّ زمانُ حكمه الأوّل أشبه بالحلم ما يكون، وقد كاد الناس يظنّون إمكانه ضرباً من المستحيل والجنون. فقد أرسى هذا الملك ركائز القسط في البلاد، والعدل بين العباد. فألْزم القضاة فتح أبواب المجالس، وعزَل منهم الخامل والناعس، ووجّه بتسريع النظر في الشكاوى، والبتّ في الدعاوى، وصادر كلّ مالٍ منهوب، وأعاد كلّ حقٍّ مسلوب، وعاقب كبار المعتدين قبلَ صغارِهم، وحثّ الخارجين على العودة إلى رشدهم وديارهم. ولم يَسرق المالَ كما جرت العادة، ولا شغل الناس بما لا يرجى منه النفع والإفادة. ولم يتسامح قطّ مع المرتشين والفاسدين، من العمّال والمسؤولين والموظّفين، بل أنزل بهم أشدّ العقاب، وجعلهم عبرةً لأولي الألباب. وكذا فعل مع من طغى وتجبّر، من قادة الجند والعسكر، وأنصف الناسَ حتّى من نفسه، وأطلق كلّ مظلومٍ من حبسه.

ولكنّ عهد السرور هذا لم يدُم، أرامه المرء أم لم يَرُم. فقد ضاق بالملك العادل الأشقياء ذرعا، ودبّروا المكائد إذ أرادوا له خلعا، واستغلّوا تواضعه وطيبة جَنانه، وحِلمَه وعِفّة لسانه، فأغرَوا به الجهلاء، وسلّطوا عليه السفهاء، وأشاعوا الفريات والأباطيل، والترّهات والأقاويل، بأنّه لعدوّ البلاد مُرتهَن، وأنّه يكيد في السرّ والعلن، يريد يبيعه تراب الوطن، وأنّه أصل كلّ الشرور والمِحَن، وأنّه غداً سيقلب للناس ظهر المِجَنّ، وأنّهم لن يجدوا عنده سوى الكفن! ورغم سخافة الأكاذيب، إلّا أنّ كثرتها حيّرت اللبيب، وصدّقها الجاهل والغريب، وتناقلها البعيد والقريب.

ثمّ سرقوا بيت المال، وأشعلوا النيران في الأسواق والمحالّ، واغتالوا بعض القضاة جهرا، تدبيراً منهم ومكرا. ولمّا كاد ينكشف أحد رؤوسهم، قتلوه هم بسيوفهم وفؤوسهم، واتهموا الملك بتدبير اغتياله، لأنّه _ على زعمهم _ عارضه بأقواله وفعاله.

وعمّت البلادَ الفوضى، فليس من يعقل وليس من يرضى، وما هي إلّا أيّامٌ قلائل، من الفتن والبلابل، حتّى تحرّكت اليد الأخيرة للعصابة الشرّيرة، وكانت شرذمةً مذمومة، بالغدر والخيانة موسومة، من الجند والقادة المعروفين بالفجور، لا حماة الديار ولا حرّاس الثغور، أولئك الّذين منع الملك عنهم العطايا والمزايا، وما كانوا يسلبونه من حقوق الرعايا،

فأخذوه فجراً على حين غرّة، قلوبهم سوداء ووجوههم مُكفهرّة، وعلّقوا رأسه على باب القلعة، متوعّدين من يتعاطف معه باللسان أو بالدمعة.

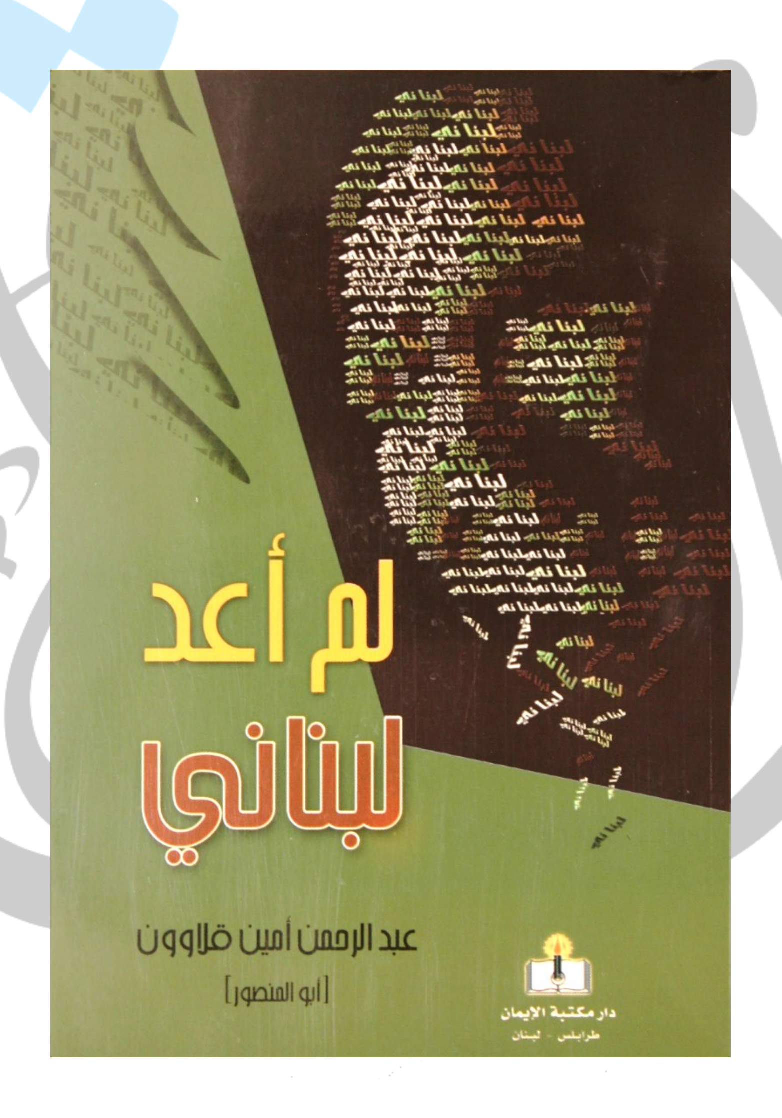
ونصّب الخونة من بينهم الملك الجديد، فوعد الناسَ العيش الرغيد، وأنّه الأمنَ سوف يُعيد، وأنّ المال في عهده سوف يزيد... ولكن هيهات هيهات، أيعود قريباً من قد مات! فقد تربّع الظلّامُ على العرش، وساروا بالخداع وبالغشّ، وأسالوا الدماء الحرام، وأجرَوا بالمَين الأقلام، واشتدّت البلوى وعمّ الظلام، وامتدّ لجيلين في الأقوام، حتّى ظهر فارسٌ همام، شهمٌ مقدام، فقام يعيد سيرة جَدّه الملك المظلوم، ويمحو بسيفه سلطان كلّ غشوم... وكذلك هي الأيّام دوَل، فيَومٌ يُذِلُّ ويَومٌ يُجَلّ.


تمّ بعون الله

الفهرس

صدر للكاتب

لم أعد لبنانيّاً ــ ديوان شعر



صدر للكاتب

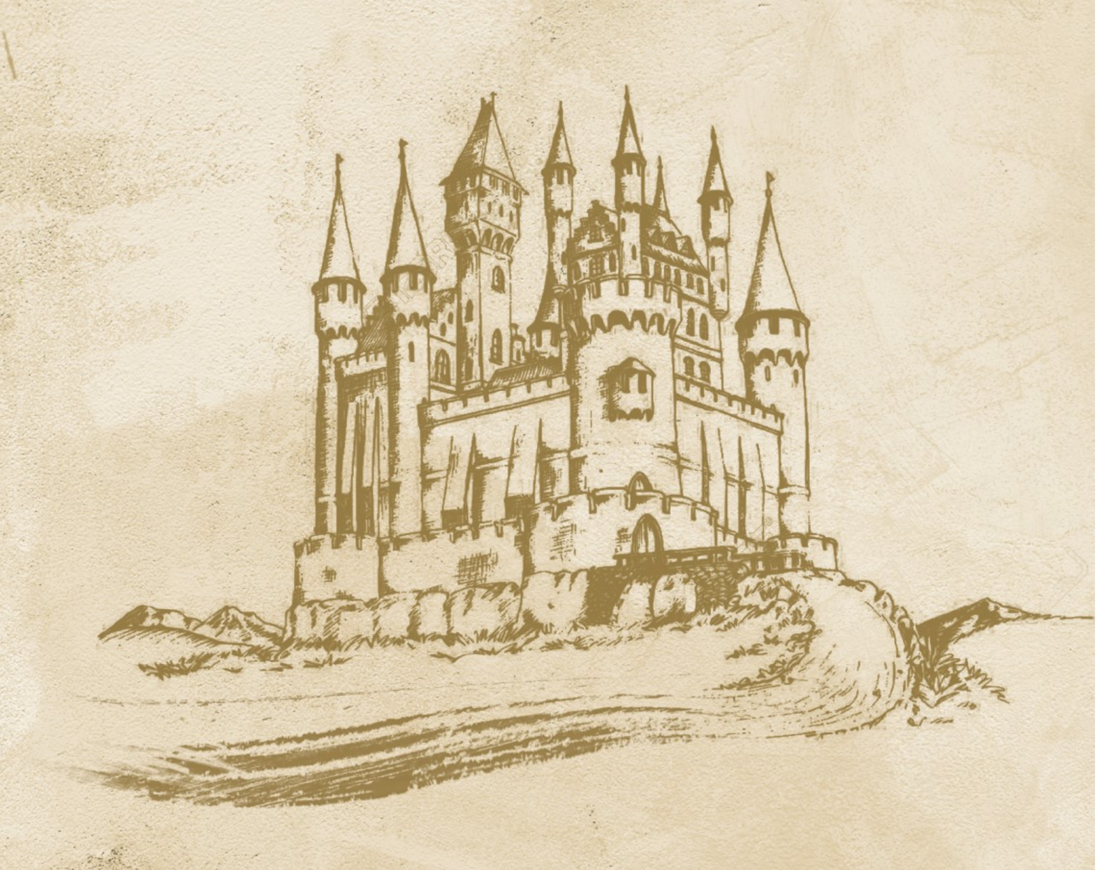
إملأ كؤوسك من دمي ــ ديوان شعر



صدر للكاتب

ما بين الظلمة والنور ــ ديوان شعر





هنا فهمت الخطة واتضحت لي المكيدة
وانجلت المؤامرة، فنظرت إلى يقظان،
وأمسكته من الخلف، كيد جده في منامه،
وقلت له: تعال... لدينا واجب نبيل
وعمل جليل. يجب ألّا نعود، يجب ألّا نعود.
خلقنا أحراراً ويجب ألّا نعود كالعبيد!!!